العربية لغة النون

د. محمد سعيد صالح ربيع الغامدي

أستاذ العلوم اللغوية المساعد بقسم اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة الملك عبد العزيز بجدة

(١)

لغة الضاد أم لغة النون؟:

درج علـــى ألسنة الناس منذ قرونٍ الإشارةُ إلى اللغة العربية على أنهـــا **لغة الضاد**؛ تمييزًا لها عن غيرها من اللغات التي يُعتقد أنها كافةً لا تحـــوي هذا الصوت. فمعيارُ إطلاق اللقب الذي يميزها عن غيرها إذًا هو انفـــرادُها بـــتأدية صوتٍ معيَّنٍ لا تؤديه سائرُ اللغات، هو الضاد. غير أنَّ اللافـــت أنَّ حـــرف الضاد هذا يكتنفه عددٌ من الأمور التي تقلل من أهمية التعويل عليه مميِّزًا ناصعًا للعربية، وتحدُّ من قيمة إيراد لقب (لغة الضاد) في سياق الاعتزاز والفخر بالعربية، أو في ضمن الكلام على خصوصيتها. من هذه الأمور أنَّ حرفَ الضاد من أقل الحروف وأندرها دورانًا في اللفظ العربي. وهو أيضًا من أثقلها على اللسان، إن لم يكن أثقلها بإطلاق. وهو فـــوق هذا وذاك من الأصوات التي لم يستطع المتكلمون بالعربية من أهلها المحافظةَ على نطقه على الهيئة التي وصفه بها علماءُ العربية الأوائل، بل اختلط أداؤه بأداء صوتٍ آخر هو الظاء، كما سيأتي. وحرف الضاد كذلك ليس من الحروف الفاعلة صوتيًّا ووظيفيًّا ودلاليًّا في المفردات والمركبات، فـــلا ينفرد عن غيره من الحروف بتأدية وظائف لغوية أخرى غير دخوله في بنية الكلمات. بل هو من أكثرها خمولاً وعجزًا عن تأدية هذه الوظائف اللغـــوية، حتى ليمكننا القول: إن هذا الخمول هو سبب ميل المتكلمين إلى تجنبه حتى اختفى أو كاد.

ولـــو عـــدنا إلى البحث في الجذور الأولى للاعتداد بحرف الضاد فارقًـــا ومميـــزًا للعـــربية، لـــوجدنا بعض الدارسين قد عُني بتتبع أوائل النصوص المأثورة التي تصف العربية بلغة الضاد. فيرجِّحُ غيرُ واحدٍ منهم أنَّ من أقدم النصوص التراثية المشتملة على هذا الوصف هو قول المتنبي:

وبهم فخرُ كل من نطق الضا (م) دَ وعوذُ الجاني وغوثُ الطريدِ

وقــد عــاش في القرن الرابع الهجري[1]. أما ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((أنا أفصح من نطق بالضاد)) فلم تذكره كتب الحديث المعتبرة، ولذا قيل: إنه لا أصل له ولا يصح[2]، مع أنه مشهورٌ متداولٌ على ألسنة الناس، متناقَلٌ في كتب اللغة بكثرة منذ عدة قرون[3].

ويــذهب الدكتور حسن ظاظا رحمه الله إلى إنكار أن تكون الضاد من أخص خصائص العربية الفصيحة أصلاً، إذ يرى أن مفخرة العربية ليست في الانفراد بها من دون اللغات، بل في حفاظها عليها بعد أن انقرضت في لغــة الأسلاف[4]؛ لأنه يرى هو وغيره من العلماء أن الضاد كانت موجودة في اللغة السامية الأم[5].

إنَّ في النطق بالضاد على النحو الذي وصفه القدماءُ صعوبةً وعسرًا؛ لــيس فــي عصــرنا هــذا وحسب، بل يتبيَّن منذ القدم ((من كلام علماء القــراءات والــتجويد أنَّ الضادَ صعبةُ النطق على ألسنة الناس، وأنَّ عدم مــراعاة نطقهــا بدقــة؛ نتيجةً لصعوبتها، قد يحيلها إلى صوتٍ آخر، بل أصوات أخرى، تنطق في بيئات مختلفة، وهي الظاء، أو اللام، أو ما يقرب مــن الطــاء "الــدال المفخمــة"، أو صوت ممزوج بالذال، أو صوت أُشِمَّ الــزاي))[6]. ويذكــر بعض أئمة القراءات أنه قلَّ من يُحْكِمُ نطق الضاد من الــناس[7]. وتحدثنا المصادر عن تحريف كثيرٍ من المتكلمين للضاد بنطقها ظاءً، لعل من أقدم النصوص التي تبين اختلاط الصوتين رواية أبي بكر بن الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨هـ أنَّ رجلاً سأل عمر بن الخطاب رضي الله عــنه: "يــا أمير المؤمنين، يُضحّى بالضبي؟"[8]. وقد أَلَّفَ عددٌ من علمائنا الأقدمين كتبًا وفصولاً من كتبٍ في الفصل بين الضاد والظاء؛ لأنها تختلط على الناس[9]. أما عالم القراءات ابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣هـ فيؤكِّد

دون مـــواربة أن هذا الحرف العسير قد اختفى مع الفصحاء الذين ينطقونه بالطـــبع ســـليقةً، ولا سبيل إلى نطقه بكلفةٍ ولا تعليمٍ، إذا لم يقدر الشخص على إخراجه من مخرجه بطبعه[١٠].

والضـــاد ــ لثقلها ــ من أقل الأصوات دورانًا في الألفاظ العربية (فاءً وعيـــنًا ولامًـــا)؛ يتضح ذلك من خلال تتبع مواد المعجم العربي[١١]، ومن خـــلال نتائج الدراسات الحديثة التي اختبرت شيوعَ الأصوات اللغوية، من حـــيث عـــدد تكـــرارات الصوت في عينات لغوية فصيحةٍ أُجريت عليها اختـــبارات قـــياس الشيوع. منها على سبيل المثال ما أجراه الدكتور محمد علي الخولي، واتضح منه أن الضاد والظاء كانت في ذيل ترتيب تكرارات الحـــروف[١٢]. وهي أيضًا ليست من الحروف التي تدخل في اللواصق التي تلحق بالكلمات من أولها أو حشوها أو آخرها. ولا تكون بدلاً ولا زائدةً[١٣]. ومن صفاتها الجهرُ والتفخيم والإطباق والاستعلاء والرخاوة والاستطالة[١٤]، وأضـــاف بعضهم إلى ذلك التفشي كالشين[١٥]. ومخرج الضاد الفصيحة من بين أول حافة اللسان من جهة أقصى الحنك وما يليه من الأضراس. يقول ظاظـــا: ((ولكـــن على عهد سيبويه نفسه يبدو أن الضاد كانت مشكلةً في نطقهـــا؛ فقـــد ذكـــر إلـــى جانـــب الضـــاد الفصيحة صوتًا يسميه "الضاد الضعيفة"))[١٦]. ثم ينقل عن سيبويه قوله في وصف الضعيفة: ((تُتَكَلَّفُ من الجانب الأيمن. وإن شئت تكلَّفتها من الجانب الأيسر، وهو أخفُّ؛ لأنها من حافَّـــة اللسان مطبَقة، لأنك جمعت في الضاد تكلُّفَ الإطباق مع إزالته عن موضعه. وإنما جاز هذا فيها لأنك تحولها من اليسار إلى الموضع الذي في اليمين، وهي أخف؛ لأنها من حافة اللسان، وأنها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها، فتستطيل حين تخالط حروف اللسان. فسهل تحويلها إلى الأيسر؛ لأنهـــا تصير في حافة اللسان في الأيسر إلى مثل ما كانت في الأيمن))[١٧].

ويخلص الباحث بعد هذا إلى أنه ما تزال في الضاد متاهات لم يقل فيها العلم كلمته الأخيرة[١٨].

ومهما يكن من أمر الضاد، فليس المقصود هنا إبعاد الضاد عن أهليتها في أن تكون لقبًا للعربية، ليحل محلها غيرها. ولا المقصود من الزعم بأن العربية **لغة النون** أنَّ العربية تنفرد بأداء النون من دون اللغات الأخرى، كما بدا في سبب تسمية العربية بلغة الضاد[١٩]. بل الهدف الرئيس من تقديم هذه الدراسة عن النون هو لفت أنظار المشتغلين بالعربية إلى عمق أثر النون في ألفاظ العربية وتراكيبها على مستويات كثيرة ليست لغير النون، على ما سيتضح على مدى الصفحات القادمة. وهو الأثر الذي يصل مداه إلى إمكان أن يُدَّعى أنَّ صوت النون ــ دون غيره ــ أداة المتكلم بالعربية الأولى في إحداث التنوعات الصوتية والاشتقاقية والدلالية والإيحائية والوظيفية الهائلة في ألفاظهم وتراكيبهم، من حيث الشكل والمضمون، وفي المستويات النفسية الباطنة والعقلية المتصورة، وفي الجوانب الاتصالية المتحققة الظاهرة. وتكاد النون تجري مع كل لفظ عربي ظاهرًا وباطنًا، فضلاً عن دخولها في البنيات الأساسية المكوِّنة للكلمات العربية كغيرها من سائر الأصوات اللغوية. بل سيتضح من خلال الدراسة أنه يحق لنا أن نطمئن إلى الاعتقاد في النون خاصة بأنها ظاهرة عربية في المقام الأول، وهو الأساس الذي يمكن بناءً عليه أن يقال: إن العربية لغة النون لا لغة الضاد.

أدرك المشتغلون بالعربية منذ البدء أهمية هذا الحرف، فشغل في مؤلفاتهم فصولا ومباحث، بل خصه نفر من القدماء والمحدثين بمصنفات مستقلة[٢٠]. وستفيد هذه الدراسة من هذه المباحث والكتب من حيث المادة العلمية، غير أنها ستنحو، كما سيتضح لاحقًا، نحو عرض النون من حيث

سعة دخولها في الألفاظ، وسعة تصرف المتكلمين فيها بصورة لافتة لأداء الوظائف والدلالات المختلفة، وهو ما لم تعرض له ــ حسب علمي ــ دراسة أخرى مماثلة. وسأبدأ أولا فيما يلي بعرض دلالات النون المعجمية وصفاتها ومخرجها، ثم أشرع في تفصيل خصائص النون ودلالاتها التي ترى الدراسة أن مجموعها يقوي دعوى أن العربية لغة النون.

(٢)

معاني النون المعجمية:

تعني كلمة "نون" في أغلب المصادر: الدواة، وقال بعضهم: بل المداد. وتعني أيضًا: الحوت، أو عين الحوت تحديدًا[٢١]. وسمي النبي يونس عليه السلام بـ "ذي النون"؛ لبقائه زمنًا في بطن الحوت[٢٢].

وفي المعنى الأول (الدواة، أو المداد) ما يدل على ارتباط لفظ "النون" بإيحاءات معاني العلم والمعرفة والكتابة. قال الله تعالى في مطلع سورةٍ من سور القرآن الكريم هي سورة "القلم"، الدالة على عظم قدر العلم والمعرفة، والدالة على حض الشرع الإسلامي الحنيف على طلب العلم:﴿نون والقلم وما يسطرون﴾ فافتتحت السورة بهذا الحرف. روى القرطبي في تفسيره عن ثابت البناني أنه فسر النون في سورة القلم بالدواة، قال: ((وقاله الحسن، وقتادة. وروى الوليد بن مسلم قال: حدثنا مالك بن أنس عن سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال: "سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: أول ما خلق الله القلمَ، ثم خلق النون وهي الدواة، وذلك قوله تعالى نون والقلم))[٢٣]. وقال ابن كثير في تفسيره: ((قال ابن جرير: حدثنا عبد الأعلى حدثنا أبو ثور عن معمر عن الحسن وقتادة، في قوله: نون، قالا: هي الدواة.. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الحسن بن يحيى حدثنا أبو عبد الله

مولـــى بنـــي أمية عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: خلق الله النون، وهي الدواة". وقال ابن جرير: حدثـــنا ابـــن حميد حدثنا يعقوب حدثنا أخي عيسى بن عبد الله حدثنا ثابت الثمالـــي عـــن ابن عباس قال: إن الله خلق النون وهي الدواة، وخلق القلم، فقـــال: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول به، بر أو فجور، أو رزق مقسوم، حلال أو حرام..))[٢٤]. وقد قـــيل في تفسير رسمها الإملائي المعروف (ن): إنه قد اختيرت له صورة الدواة وفي وسطها النقطة، كالقلم أو الريشة في وسط الدواة[٢٥].

أمـــا المعنى الثاني (الحوت) فمن الطريف أن المفسرين الذين أوّلوه بهذا المعنى في سورة القلم ذهبوا أيضًا هنا إلى أنه أوّل ما خلق الله تعالى كـــالقلم، فقالوا: إن أول ما خلق الله القلم والحوت، وقد روي ذلك مرفوعًا إلـــى ابـــن عباس رضي الله عنه[٢٦]. وذهب بعض المفسرين إلى أن النون المرادة في الآية: هي اللوح المحفوظ. وقيل: من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم. وقيل: نهر في الجنة، وقيل غير ذلك[٢٧].

وقال بعض اللغويين: يقال للسيف العريض المعطوف طرفي الظبة: ذو النونين، والنون: شفرة السيف. والنون: اسم سيف لبعض العرب. وذو الـــنون: سيف كان لمالك بن زهير أخي قيس بن زهير، فقتله حملُ بن بدر وأخذ منه سيفه ذا النون، فلما كان يوم الهباءة قتل الحارثُ بن زهير حملَ بن بدر وأخذ منه ذا النون[٢٨].

والنونة: النقبة في ذقن الصبي الصغير. وفي حديث عثمان أنه رأى صبيا مليحا، فقال: دسموا نونته، أي: سودوها؛ لئلا تصيبه العين[٢٩].

والـــ "نـــون" حـــرف الهجاء المعروف. فكأنه العلم المنقول الوحيد المخالـــف سائر أسماء حروف الهجاء المرتجلة، عدا "العين"؛ إذ لم يُعرف

من بين أسماء الحروف الأخرى غيرهما ما استُعمل استعمالا لغويًا مشهورًا ثم نُقل إلى العلمية للدلالة على الحرف، وإن ذكر بعض اللغويين في بعضها شيئًا من هذا القبيل، وذلك على سبيل التورية بلفظ يشبه في صورته اسم الحرف ويراد به أمر آخر، أو من قبيل ما هو من نوادر اللغة وغريبها[٣٠].

(٣)

مخرج النون وصفاتها:

حدد القدماء مخرج النون المتحركة من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا. ومن الخياشيم مخرجُ النون الساكنة، ويقال لها الخفية والخفيفة[٣١]. ومن صفاتها الجهر والغنة والذلاقة والتوسط بين الشدة والرخاوة والانفتاح والانخفاض[٣٢]. ومما يميزها عن غيرها الاستطالة في الغنة التي تمتد في الخيشوم، فهي لذلك تشابه حروف المد، ولا سيما الألف التي هي هواء في الحلق[٣٣]. ويشبهها بعضهم من حيث الخصائص الصوتية بالواو[٣٤]، كما شُبهت أحيانًا أخرى باللام[٣٥]، فضلاً عن اشتراكها مع الميم في الغنة والاستطالة، وفي كونهما معًا من حروف طرف اللسان (الذلق) والخيشوم، ولذا تكرر عند الأقدمين ضمهما إلى نسب واحد[٣٦].

وتتمتع النون، كما تظهر دراسات المحدثين، بقدر كبير من الوضوح السمعي. إذ تحتل في الترتيب التصاعدي من حيث الوضوح السمعي ــ بحسب ترتيب إبراهيم أنيس ــ مع الميم (القريبة منها صفة ومخرجًا) المرتبة السابعة في سلم الترتيب المكون من عشر درجات، لكنها بين الصوامت تحتل المرتبة ما قبل العليا الأخيرة، حيث لا يزيد عنها وعن الميم في الوضوح من الصوامت إلا اللام والراء، وتحتلان المرتبة الثامنة[٣٧].

ومـــن الجديـــر بالتأمل أن النون الخفيفة (الساكنة) تتغير صفاتها وأحـــوالها بتغيـــر مواقعها في الكلام. إذ يعرض لها من الصفات في حال التقائها بأصوات مختلفة أخرى ما لا يعرض لغيرها، ولا يشركها في ذلك حـــرفٌ آخـــر؛ وذلـــك لسرعة تأثرها بما يجاورها، واتصالها به اتصالاً مباشرًا[٣٨]. فهي إذا تلتها "الفاء" مثلاً (نحو "ينفع") صوتٌ شفويٌّ أسنانيٌّ أنفيٌّ مجهـــور، يوصَل في النطق به بين الشفة السفلى وأطراف الأسنان العليا، ويخفض الطبق، وتتذبذب الأوتار الصوتية، وهي هنا صوت مرقق دائمًا. أمـــا قـــبل الأصـــوات اللثوية (الذال والثاء والظاء) فصوتٌ أسناني أنفي مجهور، يُنطَق به بإخراج اللسان، أي: بوضع طرفه مقابل أطراف الأسنان العلـــيا، وخفض الطبق، مع إحداث ذبذبة في الأوتار الصوتية. وهو مفخم مع الظاء، مرقق مع الذال والثاء. وفي حال التفخيم يرتفع مؤخر اللسان في اتجـــاه الطـــبق، وينسحب إلى جدار الحلق الخلفي. وإذا وليها الدال والتاء والطـــاء مـــن الأصـــوات الشداد، والزاي والصاد والسين من الأصوات الرخوة، فصوت أسناني لثوي أنفي مجهور، ينطق به بوضع طرف اللسان ضـــد الأسنان العليا في حالة الشدة والسفلى في حالة الرخاوة، ومقدمه ضد اللثة مع خفض الطبق، وإحداث ذبذبة في الأوتار الصوتية. وإذا وليها أحد الحـــروف الشـــجرية (الشـــين والجيم والياء) فصوتٌ غاريٌّ أنفي مجهور مـــرقق، يُنطق به برفع مقدم اللسان في اتجاه الغار، مع خفض الطبق حتى ينفـــتح المجرى الأنفي، وإحداث ذبذبة في الأوتار الصوتية[٣٩]. وهكذا نجد الـــنون دائمـــة الـــتحول فـــي الصفات، سريعة الاندماج في غيرها وقابلة الاتصال المباشر به.

ومـــن آيـــات مـــرونة النون وقبولها التغير والاندماج في الأصوات الأخـــرى مـــا هـــو مشهور في التجويد، ولحظه الأقدمون منذ بدء تدوين

الملحوظات الصوتية، من أحكام النون الساكنة عند التقائها بحروف الهجاء الأخـــرى، وهي الإقلاب مع الباء، والإدغام بغنة وبغير غنة مع الأحرف المجموعة في "يرملون"، والإظهار مع أحرف الحلق الستة، والإخفاء مع ما عدا ذلك منها.

ويـــدل مجمـــوع ما سبق على خصائص خاصة في الصوت النوني ليســـت لغيره. ذلك أن هذا الصوت يلتقي في خصائصه مع أهم خصائص الصـــوامت ومـــع أهـــم خصـــائص الصـــوائت في آنٍ معًا، فتؤهلها هذه الخصـــائص مجـــتمعةً للانضـــمام إلـــى الصوامت في تكوين بنية الألفاظ الأساسية، وإلى الصوائت في تكوين الوحدات الصرفية الدالة على المعاني، كما سيتضح لاحقًا.

(٤)

دوران النون في بنية الألفاظ العربية:

ذكر ابن منظور في مقدمة اللسان أن من الحروف ما يتكرر ويكثر فـــي الكـــلام استعماله، وهو النون وأحرف المد والميم والهاء. وذكر من الحـــروف ما لا يخلو منه أكثر الكلمات، وهي أحرف الذلاقة الستة، وفيها الـــنون أيضًا[٤٠]. وتظهر دراسة الخولي المنوه عنها فيما سبق أن النون في العيـــنة اللغوية التي اختارها لبحثه تحتل من الصوامت المرتبة الثالثة بعد الـــتاء والـــلام، إذ بلـــغ تكـــرار النون ٢٠٧٧ مرة في العينة المكونة من ٤٦٠٢٩ صـــوتًا[٤١]. غير أن النون تأتي لواصق ــ كما سيأتي ــ فلو أنها احتُسبت لتصدرت إحصائيته بلا ريب. وتظهر دراسة الدكتور رشاد خليفة، ونَقَلَ نتائجَها الدكتور أحمد مختار عمر، التي أحصت تكرار الحروف في السور العشر الأولى من القرآن الكريم، أن أكثر الحروف الصوامت دورانًا فـــي الســـور النون والميم، حيث ((نجد عدد الميمات والنونات في السور

العشر الأولى يكاد يتطابق؛ إذ يزيد قليلاً عن عشرة آلاف بالنسبة للميمات، ويقل قليلاً عن عشرة آلاف بالنسبة للنونات))[٤٢]، ويقال في زيادة تكرار الميم عن تكرار النون هنا مثل الذي قيل في إحصاء الخولي السابق؛ إذ لم يدخل في إحصائه التنوين كما هو واضح. ويعزو الباحث الارتفاع الملحوظ في نسبة تكرار هذين الصوتين مقارنةً بتكرار غيرهما إلى عامل اتجاه اللغة نحو الأيسر فونيميًّا[٤٣]. هذا وسيتضح فيما يأتي أن النون يؤتى بها في مواضع كثيرة من غير أن تكون من مكونات البنية الأساسية للكلمات. وتظهر دراسة إحصائية حديثة أخرى أجراها حسن عباس على المعجم الوسيط فقط أن ما يبدأ بالنون من كلمات المعجم عدده (٢٩٣١) كلمة[٤٤]. كما تظهر دراسة الدكتور مصطفى التوني الإحصائية لورود النون في المواد المعجمية فاء وعينًا ولامًا سعة دخولها في جميع المواضع من مواد المعجم ومجاورتها للحروف الأخرى في الكلمات[٤٥].

ومن الطريف الجدير بالذكر هنا أن الذين أطلقوا على حروف الهجاء أسماءها المتداولة المعروفة استحبوا الإكثارَ من صوت النون في أسماء الحروف بصورة لافتة لا يجاريها في ذلك حرف آخر. وأول ما يلاحظ على أسماء حروف الهجاء في العربية أن الحرفَ ــ كما يذكر ابن جني ــ يُبتدأ في اسمه بصوت الحرف نفسه[٤٦]، غير أنه ينتهي في الغالب بحرف لين ممدود، وينتهي عددٌ محدودٌ منها نهاياتٍ مختلفة، سنرى أن النون تحظى بأكثر النهايات الأخرى غير المدية عددًا. ذلك أن ما لا ينتهي بالمد من الحروف وينتهي بدلاً من ذلك بالنون هو: السين، والشين، العين، الغين، والنون نفسها التي تبدأ بها وتنتهي بها أيضًا مع فصل بين النونين بالواو، فهي ستة مواضع. ويأتي بعدها في الترتيب الميم بأربعة مواضع: الجيم، اللام، الميم. ثم الفاء ثلاثة مواضع: القاف، الكاف، الفاء (ويمكن

عــدها أربعة مواضع بالألف، وإن اختلفت الألف في الحكم)، واللام ثلاثة مواضع: الدال والذال واللام، والدال كذلك: الصاد والضاد والدال. ثم الواو بموضعين: الواو. ثم الياء بموضعين: أحدهما: في آخر الزاي من غير أن يُقلب همزة، والآخر في أول حرف الياء نفسه. ونلحظ كذلك أن ثلاثة فقط مــن هــذه الحروف بدأت بصوت الحرف وانتهت به، هي النون وحرفان شفويان قريبان منها هما الميم والواو.

(٥)

مواضع زيادتها وإبدالها ــ شبهها بالمد:

كثيــرًا مــا أشار القدماء إلى شبه النون القوي بالأحرف الهوائية المسماة بأحرف اللين والمد من وجوه متعددة. وجميع وجوه الشبه هذه تعود في الغالب إلى مرونة النون ولينها وقبولها لأنْ تُمَدَّ لما فيها من غنة. ولعل اللين والمرونة والغنة والسهولة جعلتها لا تمتنع من أن تزاد في كل موضع مــن اللفــظ، كمــا يــؤكد ذلك ابن جني؛ فقد زيدت أولاً كما في "تِفْرِجة، ونــيدُلان، ونفاطيــر، ونباذير، ونخاريب، ونبراس، ونرجس..، ((وزيدت النون ثانية في نحو قِنْعاس وقِنْفَخْر، وثالثة في نحو جَحَنْفَل وعَبَنْبَل، ورابعة فــي نحو رَعْشَن وضيفَن ــ في قول غير أبي زيد ــ وخِلَفْنَة وعِرَضْنة، وخامســة في نحو سكران وغضبان، وسادسة في نحو زعفران وعُقْرُبان وحِــدْرِجان وجُلْجُــلان، وسابعة في نحو عَرَنْقُصان وعَبَيْثُران وعَبَوْثَران وقَــرَعْبَلانة))[٤٧]. وقبول الزيادة في كل موضع يُعَدُّ من خصائص الأحرف الصوائت، ولذلك سماها سيبويه بأمهات الزوائد[٤٨].

ولما لحظ القدماءُ الشبهَ الكبيرَ بين الأحرف الهوائية والنون شعروا بأهمية هذا الشبه، من قِبَل أنَّ الأحرف الهوائية (الصوائت) أهم ما تحتاجه اللغات للفصل بين صوامتها، وبها يمكن من جهةٍ نطقُ الصوامت المتتالية،

ومـــن جهـــةٍ أخرى تَعْمِدُ اللغةُ إلى الاستعانة بها في إحداث تغيرات الكلمة وتقلبات الجذر الواحد، أفردوا لأوجه الشبه تلك مباحثَ في مصنفاتهم. ذكر بعـــض المتأخرين من وجوه الشبه بين النون وأحرف المد واللين ما وصل بـــه إلى ستة عشر وجهًا. نقل السيوطي عن ابن الدهان هذه الوجوه، فقال: ((الأول: أن [أنها] تكون علامة للرفع في الأفعال الخمسة كما تكون الألف والـــواو علامـــة للرفع في الأسماء المثناة والمجموعة. الثاني: أنها تكون ضـــميرًا للجمع المؤنث كما تكون الواو ضميرًا للجمع المذكر. الثالث: أنَّ الجـــازم قد يحذفها في "لم يكُ" كما يحذف الواو والياء. الرابع: أنَّ الاسمين إذا رُكِّـــبا وهـــي فـــي آخـــر الاسم الأول فإنها قد تُسكَّن، نحو "دَشْتَنْبُوَيْه" و"باذِنْجانَـــة"، كمـــا تسكَّن في "مَعْدِيْكَرِب". الخامس: أنها قد تُحْذَفُ لالتقاء الساكنين في قوله:

ولاكِ اسقِني إنْ كانَ ماؤكَ ذا فَضْلِ

كما تحذف الواو والياء والألف لالتقاء الساكنين. السادس: أنَّ النون قد تحذف اعتباطًا عينًا ولامًا في "مُنْذُ" و"لَدُنْ" في قوله:

مِنْ لَدُ شولاً

كمـــا تحـــذف الـــواو عينًا ولامًا في "ثُبَة" ــ في أحد القولين ــ وفي "أخ". السابع: أنها تُحْذَفُ للطول في قوله:

أبني كليبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللذا

كمـــا تحـــذف الياء للطول في قولهم: "اشْهِبَاب" يريدون: اشهيبابًا. الثامن: أنَّ الألف تبدل منها في الوقف نحو "رأيتُ زيدا" و"اضربا". التاسع: أنَّ فـــيها غـــنَّةً كمـــا أنَّ في الألف وأختيها مدًّا. العاشر: أنها تكون علامةً للجمع لا ضميرًا كما تكون الألف والنون [الواو] علامة في قوله:

يعصرن السليطَ أقاربُه

وقوله:

يلومونني في اشتراء النخيل قومي

وقــولهم: (التقــتا حلقــتا البطان). الحادي عشر: أنها من حروف الــزيادة كما أن حروف المد واللين من حروف الزيادة. الثاني عشر: أنها تُــدغم فــي الــواو والياء في قولك: "زيدٌ وعمرو" و"زيدٌ يضرب". الثالث عشر: مصاحبتها حروف المد واللين وحركات الإعراب في قولك: "زيدان وزيــدون وزيدين وزيدٌ"، وحذفها بحذف حركات الإعراب في الوقف في قــولك: "زيــدْ". الــرابع عشر: تعاقبهما في المحل الواحد نحو "جَرَنْفَش" و"جرافش". الخامس عشر: حذفها في المحل الواحد الذي تحذف فيه الألف، فيجــتمع بحذفها أربع متحركات، نحو: "عَرَنْتَن وعَرَتُن" و"عُلابِط وعُلَبِط". السادس عشر: حذفها لكثرة الكلام بها كما تحذف الياء كذلك [لذلك]، وذلك نحو "بلعنبر" و"بلحرث"، كما قالوا: "لا أَدْرِ"))[٤٩].

ويتكــئ ابــن جني على المشابهة بين النون وأحرف اللين في تفسير المواضع التي يُستَحَبُّ قلبُ أحدها نونًا، وهي مواضع إبدال النون. فيذهب فــي الانتصــار لمذهب البصريين القائل بأن نون "فعلان فعلى"، كسكران وغضــبان وولهان وحيران، بدلٌ من همزة "فعلاء" كحمراء وصفراء، إلى الاحــتجاج بشبه النون ومضارعتها لحروف اللين. يقول: ((فلما ضارعت النون حروف اللين هذه المضارعة، وكانت الهمزة قد قلبت إلى كل واحدة مــن الألف والياء والواو، قلبوها أيضًا إلى الحرف الذي ضارعهن، وهو الــنون))[٥٠]. ويمضي في تَعداد ما قُلب من الهمزات نونًا، فيذكر: "صنعاني وبهراني"، المنسوبين إلى صنعاء وبهراء، ويقابل بين نون "إنسان وظَربان" وقولهم في جمعهما: "أناسيّ وظرابيّ" وبين همزة "صلفاء وخَبراء" وقولهم

فـــي الجمع: "صلافيّ وخرابيّ"، ويؤكد أن ((من ذلك أيضًا قولهم: "سكران وسكارى" و"حيران وحيارى" وندمان وندامى" و"نصران ونصارى"، فجرى هـــذا مجـــرى "صحراء وصحارى"))[٥١]. غير أنه يذكر بعد مذهبًا آخر لا يستبعد صحته، وهو أن النون في "صنعاني وبهراني" بدل من الواو المبدلة من الهمزة؛ لأنهم يقولون: "صنعاوي وبهراوي"، فالنون على هذا القول بدل من بدل الهمزة. وقد يعضده ورود الواو مبدلة من النون، وهو أحد مواضع إبدالها المتعددة، كقولهم مثلاً: "من واقد"[٥٢].

وقد تُبْدَلُ النونُ أيضًا من اللام في قول بعض العرب في "لعل": "لَعَنَّ"، وروي عنهم قولهم في "بَلْ": "بَنْ"، و"هتلت السماء، وهتنت"، و"تُلُّة، وتُنُّة". ذهـــب بعضُ علماء العربية إلى أن ذلك ونحوه من قبيل اللغات، فينبغي ألا يعلل. لكن بعضهم يعلِّلُ لقلب اللام نونًا في بعض هذه الألفاظ بقرب النون مـــن اللام[٥٣]. كما تبدل النون من الدال على رأيٍ، في نحو ما ذكر بعضهم في "اللغْنون" من أنها بدل من الدال في "اللغدود"[٥٤]. وتبدل من الميم كما في "غـــيم" و"غـــين"، و"امتقع" و"انتقع"، و"أيم" و"أين"، و"مخر" و"نخر"، ونحو ذلك[٥٥]. وقد يُشْعِرُ استحسانُ العرب صوتَ النون في كثيرٍ من المواضع أنه العلَّةُ المؤديةُ ببعض قبائلهم إلى هذا النوع من الإبدال.

أما زيادة النون التي لا يمتنع منها موضعٌ من اللفظ ــ كما تقدم ــ فقد توصَّلَ القدماءُ إلى وضع ضابطٍ يُعيِّن تحتُّمَ الحكم إما بزيادتها، وإما بكونها مـــن أصل البنية. وهذا الضابط هو قانون علماء الصرف المهم في الحكم على الحرف بأصالة أو زيادة، وهو قانون "النظير"، ومعنى ذلك: أنه يحكم بأصـــالتها فـــي اللفظ إن وجد له نظير آخر في العربية على زنته، ويحكم بـــزيادتها إن لـــم يوجد النظير. فهي في "عَنْتَر" أصلية؛ لأنها تقابل الثاني الأصـــلي في نحو "جعفر"، وهي كذلك في "حِنْزَقْر"؛ لأنها بإزاء الراء في

"جِـرْدَحْل" و"قِـرْطَعْب". لكـنها في نحو "تَرْجِس" زائدة؛ لعدم وجود نحو "جَعْفِر" في العربية[٥٦]. إلا أن هذا قد يُعارضه دليل آخر هو دليل الاشتقاق، فبعضهم يقدمه على دليل النظير[٥٧]. ويضيف ابن جني قانونًا لزيادتها مبنيًّا علـى الضابط السابق نفسه، هو قوله: ((وإذا رأيت النون في كلمة خماسية ثالـثةً سـاكنة فـاقض بزيادتها، نحو "قَرَنْفُل، وسَلَنْطَح، وبَلَنْدَح، وجَرَنْبَذ، وجَـرَنْفَس))[٥٨]. ومـثل مـا تقدم من الألفاظ التي ذكرها ابن جني قولهم: جَحَـنْفل، وأَلَنْدَد، ووَرَنْتَل، وسَجَنْجَل، وقَلَنْسُوَة، مما كانت النون فيه ساكنة ثالثة غير مدغمة[٥٩]. وذكر سيبويه أن ذلك ينطبق على السداسية، أي: التي بعد نونها ثلاثة أحرف نحو جعنظار[٦٠].

ويُحْكَمُ بزيادة النون إذا تطرَّفت بعد ألف، مسبوقةً بثلاثة أحرف مقطوعٍ بأصالتها أو أكثر، نحو "عُثْمان، وعَطْشان، وغَطَفان، وأَصْبَهان، وزَعْفَران، وأُسْطُوانة، وأُقْحُوان[٦١]. أما إن كان أحد الثلاثة يحتمل الأصالة والزيادة فإنَّ حكم النون يتوقف على حكم الثالث، فإن عُدَّ زائدًا فالنون أصلية، وإلا فهي زائدة. وذلك نحو "حيّان: من الحياة، أو من الحين"، و"عفّان: من العفة، أو مـن العفونة"، و"حسّان: من الحسن، أو من الحسّ"، و"سمّان: من السم، أو مـن السمن"..إلخ[٦٢]. وعقد السيوطي في المزهر فصلاً للألفاظ التي زادوا فـي آخرها النون، ذكر منها: رَعْشَن، وضَيفَن، وخَلْبَن، وعَلْجَن، ونِظْرَنَّة، وسِمْعَنَّة، وبِلَغْن، وبِلَعْن، وعِرَضْنَة، وخِلَفْن، وخِلَفْنَة، وفِرسِن،..وغيرها[٦٣].

وسـنذكر مـن هـذا الباب ــ أعني باب الزيادة ــ عما قليل لواصقَ تضاف إلى المفردات، أسماءً وأفعالا وحروفًا، من أولها ومن حشوها ومن آخـرها، إما بالنون وحدها وإما بالنون ومعها غيرها. وسيتبين من خلال سـردها مقدار ما يعتمد المتكلمون على النون في أداء المعاني التي تنحو اللغة إلى تأديتها باللواصق، مقارنةً بغير النون من سائر الأصوات اللغوية

الأخـــرى. وسيتضح أن النون يُستحب أن يؤتى بها كلما أمكن الإتيان بها، بصورةٍ لا يدانيها في ذلك غيرها. ومن هنا يُوقف على ثراء صوت النون بالأداء اللغوي المتعدد الجوانب.

(٦)

لواصق نونية:

١ ــ في الفعل:

تأتي النون في أول **الفعل المضارع**، للدلالة على جمع المتكلمين في نحو: نذهب. وتكون بذلك إحدى أربع سوابق لا يكون الفعل المضارع إلا بالابـــتداء بإحـــداها، هـــي الحروف الأربعة: النون والهمزة والياء والتاء، المجمـــوعة فـــي قولك: أنيت. وواضح أن الأحرف الأربعة تستأثر بتحتم التصـــاقها بجمـــيع ما يرد من أحد أقسام الفعل، وهو المضارع، من أوله، وتسمى بـــ "أحرف المضارعة".

وتأتـــي الـــنون ســـابقةً أيضًا في صيغة "**انفعل**" الدالة في الغالب على المطاوعـــة، كقـــولك: "انقلـــب". إذ هي الحرف الأول، وأما همزة الوصل فمجتلبة لإمكان النطق بالساكن. نبَّهَ على ذلك ابن جني[٦٤]، أما العكبري فقد عدها هنا زائدة ثانية[٦٥]، وهو تجوّز في العبارة. وتبقى النون كما هو معلوم ملازمة للفظ في جميع تصرفاته، فتقول: انقلب، ينقلب، فهو منقلِب، ومنقَلَب إليه..إلخ.

ويؤكد الأقدمون أن صيغة "انفعل" هذه هي أصل صيغ المطاوعة، حتى تكـــاد تكون دلالتها مقصورة عليها. ويعينون شرطًا للفعل الذي تلحقه هذه الـــنون من أوله للدلالة على هذا المعنى الخاص، هو قبول الفعل للأثر[٦٦]. ويعنيـــنا هنا في المقام الأول التنبيه على الدلالة المهمة التي تضفيها النون على الفعل عند التصاقها به على هذا النحو. وتكمن أهمية هذا الإلصاق في

إنتاج نوع من الأفعال يقابل نوعًا منها مهمًّا جدًّا هو المبني للمجهول. ففي حين يبنى من "كسر" مثلاً للمجهول يقال: "كُسِرَ"، فتكون الدلالة هي حصول الكسر للشيء المتكلم عنه من كاسرٍ مجهول، لكن "انكسر" تجعل الشيء هو فاعل الكسر وملحقه بنفسه، والمتأثر به. ومثل ذلك: فُتِحَ وانفتح، سُلِخ وانسلخ..إلخ.

وتلحق النونُ الفعلَ من آخره (أي: لاحقة) ضميرًا للإناث، وهي المسماة بـ "**نون النسوة**". فتستأثر من جهةٍ بالدخول على آخر جميع الأفعال التي يكون فاعلها جمع مؤنث، ومن جهة أخرى تؤثر في أحوال الفعل الإعرابية والبنائية، فتغيره عن حاله التي يكون عليها بلا نون. إذ من المعلوم أن الفعل المضارع يتحول بوجود هذه النون من حال الإعراب إلى حال البناء، عند جمهور النحاة. وينتقل الماضي من البناء على الفتح إلى البناء على السكون. أما النون فتحافظ على حركتها الدالة على معناها، وهي الفتحة. والنون بهذا تعيد الفعل إلى حاله الأولى من استحقاق البناء في الأصل، كما يرى بعض النحاة[٦٧]. قال بعضهم: إن نون النسوة لما ((كان دخولها على الماضي موجبًا لتسكين آخره، وسقط عنه ما رُجح به من الحركة، صار دخولها على المضارع أيضًا موجبًا لإسقاط ما رجح به وهو الإعراب فرجع إلى أصله وهو البناء))[٦٨]. ومثل نون النسوة في إعادة الفعل المضارع المعرب إلى أصله من البناء نون التوكيد التي سيرد الحديث عنها بعد قليل. كما أنهما جميعًا مما يقتضي تغيير الفعل تبعًا لحركة كل منهما؛ إذ يغير آخر الفعل إلى السكون مع نون النسوة المتحركة، وإلى الحركة مع نون التوكيد الساكنة. ومن اللافت للنظر أن الكلمة مع تحولها من الإعراب إلى البناء يرافق ذلك وجود النون، فتعد هذه

الحـــال من أحوال وجود صوت النون وعدم زواله مع المبني، كما سيُنبَّه عليه فيما بعد.

ومثل نون النسوة في اللحاق بآخر الأفعال **نونا التوكيد** الخفيفة والثقيلة. إلا أنهمـــا تلحقان المضارع والأمر دون الماضي. على أنه قد روي عنهم شواهد لدخول نون التوكيد على الفعل الماضي، كقول الشاعر[٦٩]:

دامنَّ سعدُكِ إن رحمتِ مُتَيَّمًا لولاكِ لم يك للصبابة جانحا

وعلى اسم الفاعل في نحو قول الآخر[٧٠]:

أقائلنَّ أحضري الشهودا

ولنونـــي التوكيد ــ الخفيفة والثقيلة ــ من التأثير على آخر الأفعال التي تلحقانه ما يوافق في بعض جوانبه تأثير نون النسوة، كتحويل المضارع من حال الإعراب إلى حال البناء، وكتغيير حركات آخر الفعل الذي تتصلان بـــه. وتنفردان عنها بأحكام فصَّلَها النحاةُ بإسهابٍ في مباحثَ مستقلة خاصة بأحكام نوني التوكيد، ليس هذا مجال تفصيلها. غير أنه تجدر الإشارة هنا إلى أمرين، أحدهما: استئثار النون دون غيرِها بالدلالة على التوكيد بدرجاته في الفعل. والأمر الآخر: ما يحصل بالنونين من تحولات كثيرة للفعل ولعلامات إعرابه وللضمائر المتصلة به، لكنها جميعًا تغييرات تنحو نحو المحافظة على صـــوت النون ودلالتها التوكيدية في الفعل، فلا يطالها التغيير الصرفي؛ لئلا يختل المعنى الذي من أجله أُتي بها.

إن نـــون التوكـــيد الثقيلة ليست نونًا واحدة، بل هي في الحقيقة نونان، أولاهمـــا ســـاكنة والثانـــية متحركة بالفتح. وفي ذلك دلالة واضحة على اســـتحباب الاســـتكثار من النونات؛ لإثبات دلالات التوكيد في الفعل. ومن الملاحـــظ هنا أن المتكلمين ينحون نحو تغيير الفعل الذي تتصل به النون

وتغييـــر ضـــمائره التـــي تتصل به؛ من أجل المحافظة على سكون أولى النونـــين، ولـــذلك من الدلالة على الاعتماد القوي عليها في تأدية المعنى، والتضحية ببعض بنية اللفظ وأجزاء الضمائر في سبيل إظهار المعنى بها، ما لا يخفى.

ومـــن التغييـــرات التي تحصل للفعل الذي تتصل به نون التوكيد: فتحُ آخـــره، ورد الـــلام إن كان معتل اللام إلى أصلها، إن كان مسندًا إلى اسم ظاهر أو إلى ضمير الواحد المذكَّر، نحو "لَيَنْصُرَنَّ، لَيَغْزُوَنَّ، لَيَسْعَيَنَّ". فإن كـــان مســـندًا إلـــى ضمير الاثنين حُذفت نون الرفع وكُسِرت نون التوكيد الثانـــية، نحو "لَتَنْصُرانِّ، لَتَغْزُوانِّ، لَتَسْعَيانِّ". وإن أُسند إلى واو الجمع فإن كـــان صـــحيحًا حذفت نون الرفع وواو الجمع، نحو "لَتَنْصُرُنَّ"، وإن كان ناقصًـــا مضـــموم العين أو مكسورها حذفت لام الفعل أيضًا زيادة على ما تقـــدم، نحـــو "لَتَغْزُنَّ، لَتَقْضُنَّ"، وإن كان مفتوح اللام حُذفت اللام وبقي ما قبلها مفتوحًا وحُرِّكت واو الجمع بالضمة، نحو "لَتَسْعَوُنَّ". وإن أُسند الفعل إلى نون النسوة زيد ألفٌ بينها وبين نون التوكيد مع كسر النون الثانية من نونـــي التوكيد، نحو "لَتَنْصُرْنانِّ، لَتَغْزُونانِّ، لَتَسْعَيْنانِّ". أما إن أسند إلى ياء المخاطـــبة فإنـــه يحذف منه نون الرفع وياء المخاطبة ولام الفعل إن كان ناقصًـــا غيـــر مفـــتوح العين، نحو "لَتَنْصُرِنَّ، لَتَغْزِنَّ، لَتَرْمِنَّ"، وتبقى ياء المخاطـــبة محرَّكة بالكسر مع فتح ما قبلها في الناقص مفتوح العين، نحو "لَتَسْعَيِنَّ"[٧١].

وهـــناك نـــونٌ من اللواصق النونية المهمة جدًّا تلحق آخرَ أحدِ أنواع الأفعال الثلاثة، هو الفعل المضارع، تسمى **نون الرفع**. وهي النون المميزة لطائفةٍ لا يُستهان بها من الأفعال المضارعة تسمى "الأفعال الخمسة"، وهي

كـل فعـل مضـارع اتصلت به واو الجماعة، غائبًا أو مخاطبًا، أو ألف الاثنـين، غائـبًا أو مخاطـبًا، أو ياء المخاطبة (يكتبون، تكتبون، يكتبان، تكتبان، تكتبين)[٧٢]. فلم يبق على هذا من الأفعال المضارعة لم تلحقه النون إلا مـا أسند إلى ضمير الواحد غير المؤكد؛ لأن ما أسند إلى جمع الإناث غائـبًا ومخاطـبًا تتصـل به نون أخرى هي نون النسوة المتقدم ذكرها، وتتصل بالمؤكد نون التوكيد على ما مضى تفصيله.

يدلُّ ثبوتُ النون في هذا النوع من الأفعال علامةً مميزة للرفع ــ وهو أشـرف أحـوال اللفـظ كما يقول النحاة ــ وخلوُّهُ منها في حال النصب والجـزم، علـى قـوة الاعتماد على النون وحدَها سلبًا وإيجابًا، حضورًا وغيابًا، وجودًا وعدمًا، في تأدية المعنى التركيبي لهذا الفعل، بخلاف الفعل الـذي يخصـص لـتأدية المعنى فيه ثلاثُ علامات "الضمة للرفع والفتحة للنصـب والسـكون للجـزم". وواضحٌ أنَّ هذا في النون أبلغُ في إظهارها علامةً مُعَيَّنَةً منه في تخصيص حركة إعراب لكل حال إعرابية على حدة. إذ يكون عدم النون هنا علامةً مثلما يكون وجودها علامة؛ ((فالعلامة تكون بعـدم الشـيء كما تكون بوجود الشيء. ألا ترى أنه لو كان معك ثوبان، وأردت أن تميز أحدهما على الآخر، لكنت تصبغ أحدهما مثلاً وتترك صبغ الآخر، فيكون عدم الصبغ في أحدهما كصبغ الآخر. فتبين بهذا أن العلامة تكون بعدم شيء كما تكون بوجود شيء))[٧٣].

ونون الوقاية تلتصق بالفعلِ لاحقةً باعتبار الفعل وحده، وحشوًا باعتبار الفعـل وضمير المتكلم معًا؛ لتقيَ الفعلَ من أن يُكسر مع الياء، ولئلا يختلَّ إعرابه باختفاء علامته. وتدخل نونُ الوقاية أيضًا على الحرف، كما سيرد. وهـنا يجدر بالمرء أن يتساءل: لِمَ اختيرت النون دون غيرها لإنجاز عمل الـوقاية هذا؟ وأظن أن السرَّ في هذا أنَّ النونَ تنفرد بالجمع بين خصائص

الصـــامت وبعـــض صـــفات الصائت، ويؤمَنُ فيها فوق ذلك ما خيف في حـــروف اللين، وهو أيضًا سر اختيارها لتُختَتَمَ بها الأسماء، كما سيرد عن العكبـــري عما قليل. ويؤنِسُ بقرب هذا الجواب أن النون بها وحدها يُجْبَرُ مـــن الصيغ ما يحتاج إلى حرفٍ يجبر نقصَه من غير بنيته الأساسية، كما سنذكره فيما يأتي من صفحات الدراسة.

لقد عُدَّت هذه النون الواقية أيضًا علامةً فارقةً، ودليلاً على هوية اللفظ الـــذي اتصـــلت به. إذ بها فَصَلَ النحاةُ بين الاسم والفعل إذا اشتبه أحدهما بالآخـــر. ففـــي جدل النحاة المشهور في صيغة التعجب "ما أفعله"، بين أن تكون فعلا أو اسمًا، استدل القائلون بالفعلية بدخول نون الوقاية عليها؛ لأنك تقول مثلاً: "ما أفقرني إلى عفو الله"[٧٤].

وتلحـــق نـــون الـــوقاية بعـــض الحروف أيضًا نحو (قدني) و(قطني) و(ليتني) و(لعلني)، وعددًا من الحروف الأخرى التي تنتهي بالنون أصلا، مشـــددةً نحو (إنَّ وأنَّ ولكنَّ)، وخفيفة نحو (من وعن). وتلحق ظرفًا ينتهي بالـــنون هو (لدن). واللافت للنظر هنا أن أكثر ما دخلت عليه النون ينتهي بالنون أيضًا، بل بعضها ينتهي بنونين لا واحدة فتصير نون الوقاية ثالثة. ويلاحـــظ أن حماية الفعل من أن يختل بالكسر، وهو الغرض الذي دخلت النون لأجله في الأفعال، يشبهه هنا حماية النون في أواخر هذه الألفاظ من الاختلال.

٢ ــ في الاسم:

تلحـــق الـــنون جميع الأسماء العربية المعربة من آخرها على هيئة لاصقة تسمى بـــ "التنوين". فتنفرد من دون سائر الحروف بالقدرة على إثبات كون اللفظـــة عربية أصيلة، أو أنها ليست كذلك. ذلك أنها ــ كما هو معلوم ــ الـــدال الوحـــيد على ما يسميه النحاة بـــ "التمكن" في الأسماء العربية، بل

وجـــودها يكون لازمًا لا محالة في المسمى عندهم "المتمكن الأمكن"، وهو المعـــرب المصروف، أي: المنتهي بنون ساكنة بعد علامة الإعراب مهما تكن. قال سيبويه: ((التنوين علامة الأمكن عندهم والأخف عليهم))[٧٥]. ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أنَّ ما تُـــزَع منه النون في غير المتمكن الأمكن لا بـــد من السؤال عن سبب نزعها منه، والتعليل لعدم وجودها فيه، كما هو معلوم في مباحث علل المنع من الصرف، فالنون إذًا مستحضرة في الذهن غيابًا وحضورًا.

إن التنوين ليس إلا إلحاق النون الساكنة بها بعد حركة الإعراب ، فهو "تفعـــيل" مـــن النون، كما نصَّ على ذلك الأئمة من علماء العربية، ((تقول نـــونت الكلمة: ألحقت بها نونًا، وسيَّنتها: ألحقت بها سينًا، وكوَّفتها: ألحقت بها كافًا))[٧٦]. فالتنوين مصدرٌ دالٌّ على حدثٍ هو إلحاق صوت النون شيئًا من الألفاظ، واسمٌ دالٌّ على الصورة الصوتية التي يرمز لها كتابيًّا بضمتين أو فتحتـــين أو كسرتين فرقًا في التسمية لما يرمز له بصورة حرف النون. ويُلحـــظ هـــنا أن النون وحدها اختصت بأن اشتُق منها تسمية اصطلاحية للدلالة على إلحاقها بالألفاظ، واختصت أيضًا برسمين مختلفين للحالين. ولا يختلف "التنوين" في سماته الصوتية عن "النون الساكنة" بحالٍ من الأحوال، وإن كـــان لكـــل مـــنهما اسمه الخاص به. يقول الدكتور عوض المرسي جهاوي: ((قمت بتجربة صوتية لمعرفة حقيقة التنوين، وهل هناك فرق بينه وبين النون الساكنة، فسجلت جملتين: الأولى يوجد فيها التنوين، والثانية بها نـــون ساكنة، وهما: ملكٌ ترى، ولم تكنْ ترى. فوجدت أن الحزمتين التي ترمـــز الأولى منهما إلى التنوين والثانية إلى النون الساكنة متساويتان، كما أن المســـافة بـــين مركزي الحزمتين وبين ابتداء الصوت متساوية كذلك. فـــيكون ذلـــك دلـــيلاً على تساوي الصوتين من الناحية النطقية. أما مسألة

اخـــتلافهما فـــي التسمية فيرجع ذلك إلى الدور الذي يقوم به كلٌّ منهما في اللغـــة))[٧٧]. وهـــذا الـــذي يقـــوله الـــباحث بدهي واضح، غير أنَّ بعض الاضطراب قد حصل في بعض أنواع التحليل اللغوي، كما حصل التداخل في التصور الوظيفي للصوت عند المتكلمين أنفسهم، وسيأتي.

تنتهي الأسماء العربية المتمكنة إذًا بنون ساكنة يقال لها "التنوين"، ولا بـــد ـــ كما تقدم ـــ من أن يُسأل عن سبب عدم مجيئها فيما لا تنوين فيه. ويعلِّـــلُ لذلك النحاةُ بعللٍ تسمى علل المنع من الصرف التسع، في مباحث طـــويلة تعـــج بمختلف الآراء وأصناف التحليل، يهمنا منها هنا في المقام الأول الوقوف على استشعار النحاة أهمية السؤال عن غياب النون عن آخر الأســـماء جمـــيعًا؛ لأن وضعها الطبيعي غير المستنكر في اللغة أن تكون حاضـــرة دومًا. كما يهمنا هنا أيضًا التذكير بأنَّ من بين العلل التي تُخْرِجُ الاســـمَ عن طبيعته المألوفة فيخلو من التنوين، كونَهُ وافدًا إلى العربية غير أصيل فيها، وذلك الأعجمي، أو أن يكون ثقيلا مبتعدًا عن مجانسة الأسماء العربية في وضعها المعتاد، وذلك المشابهُ الفعلَ من بعض الوجوه.

ولا بـــد أن نذكِّر هنا أيضًا بالدلالة القوية الواضحة لحرص أهل اللغة ما أمكن على الإتيان بالنون في آخر الكلمة ساكنةً غيرَ محرَّكةٍ بحركة ما، وهي أنَّ ســـكون النون غير متلوَّةٍ بشيء يُظْهِرُ وجودَها في ختام كلِّ لفظةٍ ويُعْلِنُ عنه بجلاءٍ، لا يُتوهم معه أنها داخلة في أجزائها الداخلية؛ إذ قد توهم الحركةُ بمـــثل ذلـــك. هذا مع أنَّ اللغة العربية لغةٌ معربة تهتم بإظهار الحركة الدالة على المعنى في آخر الكلمة، لكنها لفرط ميلها إلى إظهار النون تختتم الكلمةَ بها بعد حركة الإعراب، كما سلف. ولهذا قرر بعض الباحثين المعاصرين أن النون صوت يستحسن السكوت عليه في العربية[٧٨].

هـــي أخـــت النون لقربها منها صفة ومخرجًا ـــ والتاء، لكنَّ الأبنيةَ التي زيدت فيها الميم والتاء للإلحاق قليلة، لا تقارن بما زيد فيه غيرهما.

٣ ـــ في الحروف والأدوات والضمائر:

يجـــد المـــتأمل فـــي بنية الحروف العاملة وغير العاملة في العربية، وفي الأدوات التي هي بمثابة الحرف حتى إن عُدَّت عند النحاة من قبيل الأسماء أو الأفعـــال، أنها في الغالب قصيرة، تتكون من حرفين أو ثلاثة، وأنها في الغالـــب تنحو نحو الانتهاء بحرف لين (إلى، على، لا، ما، يا، إذا، حتى، مهمـــا، متـــى، إلا، أو، لو، في، أي، كي). غير أن بعضًا من الأدوات لا يُختـــتم بحـــرف اللين، بل بغيره. وبالتأمل فيما ينتهي بغير اللين سنجد أن الـــنون هـــي البديل الأول لحرف اللين، بل قد تتقدم في تفضيل الإتيان بها واستحسانها في مُختتم الأداة على اللين. ذلك أن الأدوات التي تنتهي بالنون مـــن الكثـــرة أولاً بحيث تسترعي الانتباه (أَنْ، إِنْ، إِنَّ، أَنَّ، مِنْ، مَنْ، لَنْ، عَـــنْ، إذنْ، كـــأيِّن، أيْـــنَ)، وقد اشتمل بعض الظروف التي هي في حكم الأدوات علـــى الـــنون وسطًا (منذ، عند)، وآخرًا (لدن، الآن). وثانيًا: أن التدقـــيق في المواضع التي أُتي بالنون فيها من هذه الأدوات يتبين منه أن المتكلم حرص على الإتيان بجميع التنوعات المختلفة الممكنة لصوت النون مـــع صـــوت آخر؛ من أجل الدلالة على المعاني الحيوية المهمة في اللغة، والتـــي تزيد في الأهمية عن المعاني الأخرى التي تؤديها الأدوات الأخرى غير النونية. وسيتبين كثير من هذه الصور في السطور التالية.

ســـنبدأ بالكلام على النون بعد الهمزة في طائفة من الأدوات؛ لنرى ـــ مقارنةً مع تنوُّعات الهمزة وحرف اللين ـــ مقدار تقدم النون على اللين في هـــذا الموضع، من حيث الكثرةُ في عدد الأدوات المتوصَّل إليها بالنون مع الهمـــزة، ومـــن حـــيث الثراءُ الدلالي لاجتماع الصوتين معًا. ومعلومٌ عند

ويذكُرُ القدماءُ علّةَ استحسان زيادة النون ــ دون غيرها من الحروف ــ في آخر كل منصرف بأن النون أفضل وأقوى في تأدية الغرض من حروف المد واللين، مع أن بين النون وحروف المد شبهًا كبيرًا كما سبق؛ لأن حروف المد قد يلحقها ((التغيير بحسب ما قبلها من الحركات، والنون أشبه بحروف المد؛ لما فيها من الغنة، ويُؤمَنُ فيها ما خيف من حروف المدّ))[٧٩].

والنون المسماة تنوينًا، كما تثبت هوية اللفظ العربي بلحاقها آخره، معدودةٌ من جهةٍ أُخرى في مجموعة الحروف التي تؤكد انتماء لفظٍ ما للعربية بوجودها في بنيته الأصلية، وتنفي أصالة آخر بعدم اشتماله عليها. إذ إنها من أحرف الذلاقة الستة التي إن عدمت الكلمةُ الرباعية والخماسية أحدَها أُخرجت من دائرة العربي الأصيل، وعُدَّتْ في الدخيل، وهي النون والميم والراء والباء واللام والفاء. يقول ابن جني: ((فمتى وجدت كلمة رباعية أو خماسية معرَّاةً من بعض هذه الأحرف الستة فاقضِ بأنه دخيل في كلام العرب وليس منه. ولذلك سميت الحروف غير هذه الستة "مصمتة"، أي: صُمِتَ عنها أن تُبنى منها كلمة رباعية أو خماسية معرّاة من حروف الذلاقة))[٨٠].

لَحظ الدكتور إميل يعقوب أن بين تسمية تنوين "التمكين أو الأمكنية أو التمكن..إلخ" باسم "تنوين الصرف" وبين المعاني اللغوية التي تشتم من جذر "صرف" علاقة قوية. إذ من الواضح ظهور دلالة لفظ الأمكنية على معنى الخلوص من شبه ما ليس باسم عربي، وكذلك ما تدل عليه مشتقات الصرف؛ لأن الصِّرف معناه الخالص من كل شيء، ومن معاني التصريف: التبيين، فقوله عز وجلَّ ﴿صرفنا الآيات﴾ معناه: بيّناها[٨١]. ولذا كانت النون علامة فارقة للمصروف المعرب، وللصِّرف الخالص من شائبة

عـــدم التمكن، وشائبة الأعجمية، وللمصرَّف المبيِّن الواضح؛ فلا ينصرف الذهن عند رؤيتها في نهاية الاسم عن الاعتقاد بأصالته وتمكنه.

وإذا كـــان الاسم يُنَوَّنُ، أي: ينتهي بنون، في حال الإفراد أو في حال الجمع المكسر أو في حال جمع المؤنث السالم، وهي أكثر الأحوال ورودًا للأسماء، فإن النون لا تفارقه أيضًا في الأحوال الأخرى، إذ تكون في آخر المثنـــى وجمـــع المذكـــر السالم على صورة "لاحقة"، سواء كان منكرًا أم معرَّفًا، وسواء كان في أصله قبل لحاقها مصروفًا أم غير مصروف.

تلـــي **نـــونُ المثنـــى** في حال التثنية حرفَ الإعراب الساكن متحركةً بالكســـر. أما الحركة فلأن ما قبلها ساكن، وأما الكسرة فللفرق بينها وبين نـــون جمـــع المذكر[٨٢]. وواضح أشد الوضوح أن النون هنا ـــ ومثلها نون الجمـــع الآتي ذكرها بعد قليل ـــ بوجودها تتغير الأحكام الإعرابية للاسم، فبعد أن كان في صورته التي تلي فيها النونُ حركةَ الإعراب، أي: في حال الإفـــراد مع التنوين، تسمح النون بأن تسبقها الحركات الثلاث ثم تأتي هي ســـاكنةً بعدها، ينتفي هنا إمكان ورود الحركة، ويحل محله حرف إعراب، ثم النونُ متحركةً بالحركة الدالة على نوعها ومن ثم على معناها. ومع أن النون هنا تقابل التنوين في المنون كما يقرر ذلك النحاة[٨٣]، يرتفع في حال التثنـــية بعـــضُ أحكام الاسم التي كانت سائرةً قبل ذلك على المفرد، مثل وجوب غياب النون مع غير المنصرف، ومع المعرف بأل.

ومع أن التثنية محصورة في نوع معين من الأسماء، هو ما يقبل عقلاً أن يُثنى، فيخرج من ذلك ما ليس كذلك، كالاسم العلم والأسماء المبهمة نحو الإشارة والموصول والضمائر، ونحو ذلك، نجد أنَّ لواصق المثنى هذه مما لا يستغنى عنه عند الدلالة على اثنين منها، وإن لم يعدها النحاة من المثنى حقيقةً بل من الملحق به؛ لاعتبارات تتعلق بأصول الصناعة النحوية، وذلك

نحـــو: الـــزيدان، والـــزيدين، وهذان، وهذين، وهاتان، وهاتين، واللذان، واللـــذين، واللـــتان، واللتين..إلخ، مثلما لم يُستغن عن النون الشبيهة بنون النســـوة فـــي ضـــمير الإناث "هنَّ" وإن لم تكن هي نون النسوة نفسها كما سيبيَّن بعدُ.

ونون **الجمع** التي تلحق مع حرف الإعراب آخر المجموع جمع مذكر سالمًا توافق نون التثنية في أشياء وتفارقها في أشياء أخر. توافقها في أنهما معًا وحدتان صرفيتان دالتان على معنيين، أحدهما التثنية والآخر الجمعية. وفي أنهما متحركتان، وخُصِّصَ لكل منهما حركة بعينها للتفريق. ويتلوان بصـــورة متشابهة حرفَ الإعراب الذي هو أيضًا وحدة صرفية للإعراب. وتخـــتلف نون التثنية عن نون الجمع في أن الأولى أعمُّ، فتدخل على كل مثنى، في حين تدخل الأخيرة على نوع معين من الجموع. غير أن المتأمل يلحـــظ اتفـــاق كلا النوعين من الألفاظ في المحافظة على الانتهاء بصوت النون، ساكنة أو متحركة؛ لأن الجموع الأخرى غير هذا الجمع تنتهي هي أيضًا بنون أخرى هي المسماة اصطلاحًا بالتنوين كما مرَّ.

وتنتهـــي طائفة من الأسماء، صفاتٍ وغيرَ صفات، **بنون تسبقها ألف**، إما للدلالة على معنى معين، وإما زائدة لتمييز نوع خاص من الأسماء بهذه الـــزيادة. أمـــا التي تقترن الزيادة فيها بمعنى وظيفي فمنها: المصدر على وزن "فَعَـــلان" كالغَلَـــيان، والجَـــوَلان، والهَيَجان..إلخ، الدالة على التقلب. وزيـــدت الألـــف والنون أيضًا في بعض المصادر سماعًا، نحو العِصيان، والكُفْران، والشُّكْران، والغُفْران، والعُدوان. ومنها: الصفات المشهورة التي علـــى وزن "فَعْلان"، نحو: حيران، ولهان، عطشان، سكران، ندمان..إلخ. والصفات الدالة على نسبة الموصوف بها إلى الكثرة في مقدار الصفة نحو: لُقمـــان، نَومان. ومنها: الجموع التي زيد على أصول مفردها ألفٌ ونون،

كَفِعــلان نحو: نار ونيران، تاج وتيجان، غراب وغربان، غُلام وغِلمان، حوت وحيتان، خروف وخِرفان، وكذلك فُعلان نحو: قضيب وقُضبان، ذَكَر وذُكْــران، غَدير وغُدران، راكب ورُكبان..إلخ. وأما الأسماء التي مُيِّزت بهــذا الــنوع من الزيادة فقد سمع عن العرب طائفة من الأوزان مختتمة بلاحقــة الألــف والــنون هذه. منها أعلام، نحو: عُثمان، جُبران، سَلْمان، زَيــدان، عَــدنان، فِتْنان. ومنها غير علم، كَــ "فَعْلان": ظَيَّان، و"فِعْلان": عِلْــيان، إنســان، و"فِعِلّــين": غِســلين، و"فُعَّلان": حُلَّبان، نُوَّمان، غُمَّدان، و"فُعُــلاَّن": عُمُــدَّان، و"فَــيْعَلان": سَيْسَبان، تَيَّحَان، و"فَيْعُلان": حَيْسُمان، خَيْزُران، و"مَفْعَلان": مَكْرَمان، ملأمان..إلخ[٨٤].

وقــد تلحــق النونُ أواخرَ بعض الكلمات، يسبقها حرفُ مدٍّ آخر غير الألــف، أو وحــدها مــن غير سبق بمد مطلقًا. فالزيتون مثلاً فَعْلون من الــزيت[٨٥]، وإن عــدَّهُ بعضــهم على زنة "فيعول"؛ لعدم وجود "فعلون"[٨٦]. والضيفن عند سيبويه فَعْلَن، وهو الذي يجيء مع الضيف للأكل[٨٧].

والملاحظ أنَّ المنتهي من الألفاظ السابقة بالنون والمد أو بالنون وحدها يُشْتَمُّ منه في الغالب الأعم الدلالة على الزيادة والكثرة، مقارنةً مع الأصل الذي زيدت فيه. وهو ما يشعر بأن النون ــ بالإضافة إلى استحسان المتكلم الإكــثار منها في ختام الكلمات ــ هي سبيل المتكلم إلى الدلالة في طائفة كبيــرة مــن الألفاظ على الكثرة، أو على الزيادة عما يفيده الأصل مجردًا منها، وستأتي الإشارة إلى ذلك في دلالات النون.

كمــا يلاحظ أيضًا أن المد الذي يسبقها هنا ما هو إلا أداة تعتمد النون علــيها في الظهور؛ لأن المد في حقيقته ليس أكثر من حركة هوائية لا بد مــنها ضرورةً بعد كل صامت، فإما أن تقصر فتصير حركة قصيرة، وإما أن تطــول فتصير حرف مد، وقد تسمى حركة طويلة. ولذلك نستطيع أن

نطمئن إلى الاعتقاد بأن المتكلم اعتمد في الإتيان بالمعنى على النون بصورة رئيسة، وأطال الحركة السابقة عليها ــ فيما طالت فيه الحركة ــ لمزيد من بيان أثر النون الصوتي.

أما المواضع التي جاءت فيها النونُ في الاسم سابقةً أو حشوًا فقد سبقت الإشارة فيما مضى إلى مواضع زيادتها في الاسم. غير أن ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن النحاة ذكروا، غير مواضع الزيادة أولا وحشوًا وآخرًا، مواضعَ تكون فيها حروفُ الزيادة في اللفظ ملحقةً إياه بما ليس فيه زيادة من الألفاظ النظيرة الأخرى، وهو باب "الإلحاق" المشهور. ومعنى ذلك أن حروف الزيادة تكون في باب الإلحاق بمثابة اللواصق التي تُلْحِقُ لفظًا بلفظ؛لغير معنى من معاني الزيادة المعروفة، ولا ينطبق في الوقت نفسه على اللفظ المزيد في هذا الباب ما ينطبق على الألفاظ المزيدة في غيره من قوانين التصريف التي بها يُعرف الزائد والأصلي. ومن بين الحروف التي تُلْحِقُ بناءً ببناء حرفُ النون، وذلك في عدد كبير من الأبنية العربية ذكرها الصرفيون، منها ما هو من أبنية الأسماء ومنها ما هو من أبنية الأفعال.

فمن الأفعال الثلاثية التي صارت بالنون من الملحق بالرباعي المجرد: "فَعْنَلَ" نحو: قَلْنَسَ. ومن الملحق بمزيد الرباعي: "افْعَنْلَلَ" نحو: اقْعَنْسَسَ، و"افْعَنْلَى" نحو: اسلنقى. ومن أبنية الأسماء الثلاثية الملحَقَة بالرباعي المجرد كجَعْفَر: "فَنْعَل" نحو: عنسل (الناقة السريعة)، عنبس (الأسد)، حنظل (شجر معروف)، و"فَعْلَن" نحو: رعشن (المرتعش)، علْجَن (الناقة المكتنزة)، ضيفن (الذي يأتي مع الضيف). ومن الملحَق بقِمَطْر: "فِعْلَن" نحو: بِلَغْن (البلاغة)، خِلَفْنَة (كثير الخلاف)، عِرَضْنَة (مشية فيها اعتراض). ومن الملحَق بِجُخْدَب: "فُنْعَل" نحو: جُنْدَب (الجراد)، قُنْبَر

(طائـــر)، عُنْصَل (البصل البري). ومن الملحَق بالخماسي المجرد الملحَق بسـفَرْجَل: "فَعَـنْلَل" نحو غَضَنْفَر (الأسد)، عَرَنْدَس (الأسد أيضًا)، جَحَنْفَل (غليظ الشفة)، وَرَنْتَل (الشر)، عَفَنْجَج (الضخم)، ضَفَنْدَد (الضخم الأحمق)، عَـرَنْدَد (الصـلب)، و"فَعَنْلَـى" نحو: سَرَنْدَى (السريع في أموره)، قَرَنْبى (دويـبة)، و"فَعَـنْعَل" نحـو: سَجَنْجَل (المرآة)، عَصَنْصَر (الجبل)، عَقَنْقَل (الكثـيب)، و"يَفَنْعَل" نحو: يَلَنْدَد (شديد الخصومة)، يَلَنْجَج (عود البخور)، و"أَفَـنْعَل" نحـو: ألـندد، أَلَـنْجَج، و"فَعَلْنَى" نحو: عَفَرْنى (الأسد)، عَلَدْنى (الغلـيظ). ومـن الملحَق بِجِرْدَحل: "فِنْعَلْو" نحو: سِنْدَأو (القصير)، قِندأو (السـيِّئ الخلق)، حنطأو (العظيم البطن)، كِندأو (الجمل الغليظ)، و"إنْفَعْل" نحـو: إنفخـر (المفتخـر)، إنقحل (الشيخ اليابس). ومن الملحق بِقُذَعْمِل: "فُعَلْنِـيَة" نحـو: بُلَهْنِيَة (رغد العيش). ومن الملحق بِقِنْديل: "فِعْلين" نحو: غِسْـلين (وهـو المذكور في القرآن بمعنى ما يسيل من جلود أهل النار، ويعني في اللغة أيضًا ما يُغسَل من الثوب). ومن الملحق بسِرْداح: "فِعْنال" نحـو: فِـرْناس (الأسد)، و"فِنْعال" نحو: قِنْعاس (البعير العظيم)، و"فِعْلان" نحـو: سِرحان (الذئب)، شِريان، ضِبعان. ومن الملحق بقُرْطاس: "فُعْلان" نحـو: سُـلطان، قُـربان، ثُعـبان. ومن الملحق بسَلْسَبيل: "فَنْعَليل" نحو: عنتريش، خنشليل (والكلمتان بمعنى: الناقة الصلبة)، خَنْفَقيق (السريعة من الـنوق)، مَنْجَنـيق (مـن آلات الحـرب)، منجنين (وفيها لغة ثانية هي: منجنون)[٨٨].

وبالتأمل في الحروف التي زيدت لما سماه النحاة بالإلحاق يُلحَظ أنها لم تَخرج عن أحرف المد واللين التي لا يُستغنى عن زيادتها في كل موضع، كمـا مرَّ، وتكرار الحرف الأصلي، وهو أحد طرق الاشتقاق في العربية، و نون في الأبنية التي سبق ذكرها. أما غير ذلك فلم يُزَد إلا الميم ــ التي

دارسي العربية أن حرف الهمزة من أقرب الحروف إلى حروف المد واللين، ويشترك في أحكام الإعلال والإبدال معها في أحوال متعددة. وقد استثمرت اللغةُ حرفَ الهمزة مع كل حرف من حروف المد واللين في إنتاج أداةٍ لكل اجتماعٍ للهمزة مع أحدها؛ فالهمزة مع الفتحة القصيرة (أَ) حرف استفهام، وحرف نداء، ومع الألف (آ) حرف نداء، ومع الواو (أو) حرف عطف، ومع الياء (أي) حرف تفسير، ونداء، وبالتشديد موصولة واستفهامية، ومع كسر الهمزة حرف جواب بمعنى نعم. لكن اجتماع الهمزة مع النون أنتج عددًا من الأدوات، يمكن القول: إنه أكبر عدد ممكن إنتاجه باجتماع الحرفين. فمع فتح الهمزة وسكون النون (أنْ) وهي أنواع: أن المصدرية الناصبة للفعل المضارع، وهي أم الباب في نواصب المضارع، وتكون هي والفعل المنصوب بها بمثابة المصدر، وأن حرف التفسير، وأن المخففة من الثقيلة، وأن الزائدة. وقد ذكر بعض النحاة من معاني "أن" غير ما مرَّ: الجازمة، والشرطية، والنافية، والتي بمعنى "إذ"، وبمعنى "لئلا"[٨٩]. ومع كسر الهمزة وسكون النون (إنْ) الشرطية الجازمة لفعلين، وهي أم الباب، والنافية، والمخففة من الثقيلة، والزائدة. وذكر بعضهم من معانيها: كونها بمعنى قد، وبمعنى إذ[٩٠]. ومع كسر الهمزة وتشديد النون (إنَّ) الناسخة لحكم الابتداء، وهي أم الباب، وإليها نسب الباب كله، فقيل: باب "إنَّ" وأخواتها. ومن أهم معانيها توكيد مضمون الجملة، ولذلك اهتم بدراستها البلاغيون أيضًا. وتأتي حرف جواب بمعنى نعم على رأي بعضهم، وعليه خُرِّجَ قوله تعالى ﴿إن هذان لساحران﴾[٩١] في قراءة التشديد. وبفتح الهمزة وتشديد النون (أنَّ) حرف التوكيد والنصب المشابه لمكسور الهمزة، غير أن المفتوحة الهمزة تخالف مكسورتها في أحكام مشهورة، لعل خلاصة الأمر في الفرق بينهما أن المفتوحة تؤوَّلُ مع ما بعدها بمفرد، في

حـــين تؤول الأخرى بجملة، ثم نتج عن ذلك اختلاف في عدد من الأحكام الـــنحوية، مفصلة في مطولات النحاة، ولا مجال هنا للخوض فيها. وذكر بعـــض اللغويـــين أن "أنَّ" تأتـــي أيضًا في لغة بعض قبائل العرب بمعنى "لعل"[٩٢].

ومـمـــا يســـترعي الانتـــباه أن حرف التوكيد والنصب "إنَّ" قد استثمر المـــتكلمون جميعَ إمكانات التحوُّل فيه من صورةٍ إلى أخرى (بفتح الهمزة وكســـرها مع تثقيل النون، وبتخفيف النون مع الفتح والكسر) إما للبقاء في إطـــار التوكـــيد نفسه مع خلاف بين صورة وأخرى في أحكام الإعراب، ويمـــثل ذلـــك صور الأحكام النحوية المتعددة للحرفين، مشددين ومخففين، وإما للخروج إلى حقول معنوية أخرى خارج حدود التوكيد والنصب. وهذا يعنـــي المـــيل إلى استحواذ النون في أذهان المتكلمين على الاستحباب في اســـتثمار التنوعات الممكنة للأداة الواحدة التي تكون النون طرفًا فيها، بدلاً من تأليف أداة جديدة لكل معنى.

ويعـــتقد بعض مشاهير النحاة ـــ كابن هشام الأنصاري ـــ أن ضمائر المخاطـــب (أنت، أنتما، أنتم، أنتن) ليست بكاملها ضميرًا، بل الضمير "أنْ" وحدها، والتاء حرف خطاب، ونسب هذا الرأي للجمهور. وكذلك الأمر في ضـــمير المتكلم (أنا)؛ إذ هي ((ضمير المتكلم في قول بعضهم: "أنْ فعلتُ" بســـكون الـــنون، والأكثـــرون علـــى فتحها وصلاً، وعلى الإتيان بالألف قطعًـــا))[٩٣]. ونجـــد كذلك أن ضمير جماعة المتكلمين المنفصل (نحنُ) قد أحاطـــت بـــه النون من أوله وآخره. أما ضمير جماعة المتكلمين المتصل (نـــا)، وهـــو كمـــا نـــرى نـــونٌ بعـــدها مدة، فيتصل بالأسماء وبالأفعال وبالحروف، ويأتي ضمير رفع وضمير نصب وضمير جر.

وتأتـــي الـــنون أيضًا في الضمائر موكولاً إليها وحدها تأدية ما يمكن لضـــمير مســـتقل أن يؤديه من الوظائف اللغوية التي تتحملها الضمائر في العادة. فضمير الغائبات (هنَّ) و(إياهنَّ) والمخاطبات (أنتنَّ) و(إياكنَّ) فيها نـــونٌ تشـــبه إلى حدٍّ كبيرٍ يلفتُ الأنظارَ نونَ النسوة التي تكون مع الفعل ضـــميرًا مســـتقلاً، وإن كانت هنا مشددة، وتؤدي مع الضمير أهمَّ وظيفة إشـــارية لهـــا مـــع الفعل، وهي إفادة كون الضمير مرادًا به جمع الإناث. وتتقاسم مع حروف اللين والميم ــ والميم قريبة من النون كما هو معلوم ــ وظائـــفَ الإشارة إلى عدد الذين يعود إليهم الضمير (هو، هي، هما ، هم، هنَّ)، (إياه، إياها، إياهم، إياهنَّ) وضمائر المخاطب (أنت، أنتِ، أنتما، أنتم، أنتنَّ)، (إياك، إياكِ، إياكما، إياكم، إياكنَّ)، وكذلك الضمائر المتصلة، سواء أكانـــت متصلة بالأفعال أم بالأسماء أم بالحروف. واقتسمت التاء والكاف والهاء الدلالة على معنى الخطاب والغيبة. وأظن أن سر اختيار كل حرف مـــن هذه الحروف في أواخر الضمائر في العربية هو استقرار دلالته في أذهـــان المتكلمـــين على نوع معين من الدلالة صار مألوفًا فيه من خلال تـــوارده فـــي أنواع الكلام المختلفة قريبًا في التصور الذهني لما يدل عليه بوجـــوده فـــي الضمير[٩٤]. ويلحظ المتأمل في النون اللاحقة للضمائر الدالة على الإناث (أنتنَّ، وهنَّ، وإياكنَّ، وإياهنَّ) مقارنة بما يناظرها من ضمائر جمـــع الذكور المنتهية بميم أن نونها مشددة، وفي ذلك دلالة من جهةٍ على استحباب الإكثار من النونات، ومن جهةٍ أخرى على الحرص على إظهار النون بتشديدها وعلى حمايتها من التعرض للانمحاء أو الاندغام في غيرها في حال التسكين.

ومـــما تقـــدم يتبين أن النون لا تكاد تخلو منها بصورة ظاهرة الغالبيةُ العظمى في أحد أقسام الكلمات العربية، وهو الاسم، الذي هو أكثر الأقسام

اللغوية الثلاثة وجودًا، كما تدخل على الأفعال في طائفة لا يستهان بها من المواضع التركيبية، وتدخل أيضًا على ثالث الأقسام وهو الحرف. ويدل هذا التوارد للحرف على جميع أنواع الكلم على أهمية خاصة للصوت النوني عند متكلمي اللغة، لا تحظى بها سائر الأصوات اللغوية الأخرى.

(٧)

وظائف النون ودلالاتها:

سبق الإلماح إلى أن للنون دلالات متعددة مستقرة في أذهان المتكلمين، توحي النون عند ورودها بواحد منها أو أكثر، اتضح بعضها من خلال العرض المتقدم. غير أننا سنعرض هنا عددًا من الدلالات الأخرى الواضحة التي خصص المتكلمون حرف النون خاصة دون غيره لإظهارها والتعبير عنها بمجرد سماع الصوت النوني، أو قل: هي دلالة زائدة على المعاني الحرفية للألفاظ لا يمكن التعبير عنها باللفظ مجردًا من هذا الصوت المميز ذي الدلالة المميزة. وبها يتبين أن النون أداة لغوية مستقلة تضاف إلى العبارات في مواضع متفرقة منها لدلالات معيَّنة مشتركة مصطلح عليها في النظام الذهني للجماعة المتكلمة بالعربية.

لقد عُني القدماء في مواضع متفرقة من بحوثهم اللغوية بتبيان بعض الجوانب التي يُستشف منها إحساس عدد منهم بدلالة خاصة للنون في خواتم الألفاظ لا يشاركها في تأديتها غيرها. لعل في مباحث ما يسمى بـ "أقسام التنوين" إظهارًا وبيانًا لأكثرها، هذا إلى ما انفرد به بعض حذاق القدامى من مناقشة دلالات التنوين الرئيسة، كأبي القاسم السهيلي وغيره كما سيأتي. ولذا سنتتبع في الفقرات القادمة أهم ما ورد عنهم في هذا الجانب.

ذكـــر القـــدماء للتـــنوين أنواعًا، هي ــ فيما أرى ــ لا تعد من قبيل التقسيم، بل هي حصر لجميع المواضع التي سُمِعَ فيها عن العرب التنوين، مع ذكر دلالته ووظيفته في كل موضع. ووصلت الأنواع عند بعضهم إلى عشـــرة هـــي: تـــنوين الصرف (التمكين)، والتنكير، والمقابلة، والعوض، والترنم، والغالي، والاضطرار، والحكاية، والشاذ، والزيادة، جمعها بعضهم في بيتين من الشعر، هما[٩٥]:

أقسام تنوينهم عشـــر عليك بها فإن تقســـيمها من خير ما حُـــرِزا
مكِّنْ وعوِّضْ وقابِلْ والمنكَّرَ زِدْ رنِّمْ أو احكِ اضطرِرْ غالٍ وما هُمِزا

وأهـــم مـــا في هذه التقسيم العشري إشارته إلى دلالة التنوين على معـــان ووظائف عدة، منها: الإعراب، والتنكير، ومقابلة التنوين في بعض الألفـــاظ الـــنونَ في غيرها، وكونه عوضًا يكتفى به عن كلمة أو عبارة، وكـــونه زائدًا على البنية لتحقيق أغراض صوتية وتركيبية. وسننطلق من مجموع ما أثبته علماء العربية القدماء للنون من الوظائف والدلالات، وما أثبـــته إضـــافة إلـــى ذلك المعاصرون لها؛ لنصل إلى رسم ملامح صورة مـــتكاملة للـــنون، تُبِين عن مدى اعتماد المتكلم على هذا الصوت في أداء الأغراض اللغوية المختلفة.

النون وسيلة الأداء المقطعي:

ذهب الدكتور أحمد كشك في بيان قيمة التنوين الصوتية في أواخر الكلمـــات العربية إلى أن التنوين يؤدي في الكلمات الداخلية للجملة العربية سكتاتٍ سريعةٍ خفيفةٍ محتاجٍ أشد الحاجة إليها؛ لانبناء الجملة العربية على نحـــو مقبول نطقًا. إذ نظر إلى جملٍ إنجليزية تشتمل على كلمات أواخرها ساكنة، نحو:

Tell your teacher.

أو:

Look at this picture.

في مقابل جملة عربية أواخر كلماتها معربة منونة، نحو:

رأى محمدٌ عليًّا رؤيةً واضحةً في المساءِ

حيث يقابل سكونُ أواخر الكلمات الإنجليزية سكونَ التنوين في آخر الكلمات العربية[٩٦]. ويؤيد قولَ كشك هذا أن العربية تعتمد بالضرورة على حركة آخر الكلمة الإعرابية، فلو لم تكن تلك السكتة النونية لالتقت حركات أواخر الكلمات ــ وهي مما لا يستغنى عنه من أجل أداء المعنى ــ بحركات الكلمات الأخرى، فأصبحت الحروف كلها متحركة في الغالب، وهذا مما تنأى عنه العربية، كما هو معلوم؛ إذ لا تلتقي فيها الحركات الكثيرة إلا في مواضع قليلة معلومة. ولهذا السبب استغنت اللغات غير المعربة عن التنوين الذي يحقق الوقفات المحتاج إليها بالسكون، وللسبب نفسه استغنت العاميات المعاصرة التي اختفى فيها الإعراب عن التنوين أيضًا.

يطرأ على الكلمة بعد تنوينها من المظاهر ما لم يكن فيها قبله. فمما يطرأ عليها، مما يلتقي مع ما ذكره كشك، أن التنوين يحقق لمجموع ألفاظ الجمل والعبارات ما هو من شروط اللفظ العربي من جهة المقاطع التي تقبلها العربية. بل التنوين هو في كثير من الأحيان الأداة التي يتحدد بموجبها بدء المقطع أو نهايته. إذ عبارة "عَلَمٌ خَفوق" مثلاً من غير تنوين كلمة "علم" سيكون فيها خمسة متحركات (عَلَمُخَفُ)، وهو ما تأباه العربية، وبتنوينها سيفصل بين كل متحركين ساكن، فيقبل ذلك في الذوق العربي. ومن جهة أخرى كانت النون الساكنة هنا علامة لنهاية المقطع الثاني في العبارة يبدأ بعدها الثالث. وسنلحظ فوق ذلك أن التنوين إلى جانب تعيين

صـــورة مقاطع الجمل هو المعيِّن أيضًا لمواضع النبر في الكلمة. ذلك أن النبـــر في كلمة "خالد" غير منونة على الخاء، وعلى اللام مع التنوين. كما سنلحظ فيما سماه القدماء بتنوين الاضطرار مثلا في نحو قول الشاعر:

سلام الله يا مطرٌ عليها وليس عليك يا مطرٌ سلام

أن تنوين ما ليس بمنون هنا ألجأ إليه أمران: أحدهما وزن البيت، والآخر النظام المقطعي في "مَطَرُعَلَ" و"مَطَرُسَلَ".

ولعل ضرورة ارتباط حركة الإعراب بصوتٍ ما من الأصوات بعدها يفسر لنا كون التنوين "ظاهرة عربية" كما كان الإعراب كذلك. ويؤكده أن "التمييم" ــ أي: انتهاء الكلمة بميم ساكنة، ويلاحظ هنا صلة الميم بالنون ــ كان ظاهرة من ظواهر اللغة العربية القديمة واللغة الأكادية القديمة أيضًا، كمـــا يـــنقل الجهاوي عن يعقوب بكر، وفي السامية القديمة كما ينقل ذلك برجشتراســـر، والتنوين في مقابل ذلك صار ظاهرة عربية حديثة، أو هو تحول التمييم في اللغات السامية القديمة بمرور الزمان إلى تنوين[٩٧].

النون قرينة التطريب والترنم:

ذكـــر علماء العربية نونًا ساكنةً ترد في آخر بيت الشعر بدل مدة الإطلاق، واصطلحوا على تسميتها بـــ "تنوين الترنم"، وجعلوها من أقسام التـــنوين كما مرَّ، وتدخل على الحرف وعلى الفعل وعلى الاسم. ومن ذلك قول جرير:

أَفِدَ الترحُّلُ غير أنَّ ركابَنا لمّا تَزُلْ برحالنا وكأنْ قَدِنْ

وقول النابغة:

أقلي اللوم عاذل والعتابَنْ وقولي إن أصبتُ لقد أصابَنْ

وأدخـــل بعضُ النحاة ــ كابن يعيش ــ النونَ اللاحقة للقوافي المقيدة كقول رؤبة بن العجاج:

وقاتم الأعماق خاوي المختَرَقْنْ

أيضًا في هذا النوع[٩٨]، وسمى آخرون هذه الأخيرة باسم يميزها هو "التنوين الغالي". ويؤكد ابن مالك ــ فيما يرويه عنه ابن هشام ــ أن تسمية النون الساكنة اللاحقة القوافي تنويناً مجاز، وإنما هي نون أخرى زائدة[٩٩]. ولهذا آثر بعضُ الدارسين المحدثين التسميةَ بـــ (نون الترنم) بدلا من تنوين التـــرنم، كما مال إلى جَعْل كلا النوعين، أي: الترنم والغالي، للترنم، بدلا مـــن تسمية أحدهما بالترنم والآخر بالغالي، موافقًا في ذلك ابن يعيش[١٠٠]. وقـــد قال بعض النحاة ــ كسيبويه ــ إن حق التسمية أن تكون "تنوين قطع الترنم"؛ لأنها لقطع الترنم بحرف الإطلاق[١٠١]. غير أن ابن يعيش ردَّ قول إمـــام الـــنحاة بقوله عند ذكر هذا النوع: ((وهذا التنوين يستعمل في الشعر والقوافي؛ للتطريب، معاقبًا بما فيه من الغنة لحروف المد واللين، وقد كانوا يستلذون الغنة في كلامهم. وقد قال بعضهم: إنما قيل للمطرب: "مغنٍّ" لأنه يُغَنِّن صوته، وأصله: مغنِّن.. وهو على ضربين، أحدهما: أن يلحق متممًا للبناء، مكملاً للوزن. والآخر: أن يلحق بعد استيفاء البيت جميع أجزائه نيّنًا عن آخره))[١٠٢].

وقد يشهد لرأي ابن يعيش في تأكيد الاستلذاذ بغنة النون في آخر البيت الشعري ما نشعر به في القصائد النونية العذبة، كنونية ابن زيدون الرقيقة المشهورة مثلاً ونحوها. ويشهد لذلك أيضًا أن العرب استجازوا الوقف على

النون الساكنة خاصة، وحذفوا الحرف التالي لها، واستعذبوا ذلك واستحسنوه في نحو قول الشاعر:

وَمِنْ هانئٍ كاسفٍ بالُهُ إذا ما انتسبتُ له أنكرنْ

وهل يمنَعَنّي ارتيادي البلا(م) دَ من حَذَرِ الموت أن يأتينْ

وعلى قياس هذا الاستحسان خَرَّج النحاةُ قولَ الله تعالى ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾[١٠٣] مع أن ليس في القرآن الكريم ضرورة، إلا أن الفواصل القرآنية يستحب فيها ما يستحب في القوافي، فحذفت الياء تشبيهًا لها بالقوافي كما في الأبيات السابقة[١٠٤].

وفي الأداء القرآني أيضًا غنةٌ مميزة للنون في غير الفواصل وخواتم الآي، يُتَغَنّى بالنون فيها، هي مد الغنة فيما عُرف عند علماء التجويد بـ "أحكام النون الساكنة والتنوين". فتمد غنة النون مقدار حركتين إذا سكنت وتلاها حرف من حروف "الإدغام بغنة"، أو أحد حروف الإخفاء، أو حرف الإقلاب، وتُظهر النون مع حروف الإظهار، وتدغم بغير غنة مع حرفي اللام والراء.

أما في الشعر فإنَّ تأكيد النحاة القدماء جواز صرف ما لا ينصرف في الشعر خاصة، وعدم إجازة منع صرف ما ينصرف[١٠٥]، مع تعليلهم ذلك بعلة جواز رد الأشياء إلى أصلها[١٠٦] – وهو تعليلٌ له دلالته المهمة هنا؛ لأنه ينبه على أنَّ الأصلَ في الألفاظ أن تُنَوَّنَ – يتضمن ذلك أيضًا تأكيدَ استحبابِ صوت النون في الشعر، حتى لو أدى ذلك إلى الخروج عن القاعدة النحوية المقررة. بل لقد استُحب صوت النون حتى في خواتم الأبيات التي لا يتفق الإتيان بها مع الوزن العروضي، إذ التنوين الغالي

مثلا نونٌ زائدة على الوزن بكامله، كما مر. وهذا ما جعل القدماء يختلفون بشأن توجيه هذا النوع من التنوين في الشعر.

واستعذابُ صوت النون في خواتم العبارة شعرًا كانت العبارة أم نثرًا، وحتى في أولها وفي أثنائها، أمرٌ ظاهر لم يخفَ على أحد من القدامى ولا من المحدثين، ولذلك تواتر في النون من الحديث عن كونها أداة الترنم والتغني والتطريب والتعبير عن المشاعر الوجدانية ما لم يُقَل في غيرها. قال أحد الدارسين المعاصرين فيها: ((فللنون من رقيق الفضة الخالصة صافي رنينها، ومن أنين المفجوع ذوب صميمه، لا أمسّ بإنسانية الإنسان منها ولا ألصق. ففي النون رِقَّة وعصير أنفاس وألفة، لا أرشق بداية تبدأ الألفاظ بها ولا ألطف نهاية. ما جاورت النون حرفاً إلا وكان له من سنا أناقتها طيفُ خفة ورِقة ورشاقة. تفعل النون بأصوات الحروف ما تفعله الأنيقات الأديبات في نفوس الناس هزًّا لمشاعرهم وتهذيبًا لعواطفهم، صَحابة عيش ووفاء، ورفقة رِقَّة وإحاطة وحَنان، فكانت النون الأنيسة بذلك وحدَها. دنيا من المشاعر والشعر والموسيقا؛ لولاها ما اهتدى الإنسان إلى وترٍ يئنُّ وناقوسٍ يرنُّ، ولا إلى ناي أو كمان))[١٠٧].

ولعل في اختتام تفعيلات الخليل كلها بالنون الساكنة (فعولن، مفاعيلن، مفاعلتن..إلخ)؛ للتعبير عن الساكن في آخر التفعيلة، دليلاً على انسجام صوت النون مع نغمة التقطيع المناسبة للتغني عند الوقوف على آخر المقطع. ولهذا ذهب المحدثون الذين أرادوا الاستبدال بالتفعيلات التقليدية صوتين فقط أولهما متحرك والآخر ساكن إلى اختيار النون أيضًا ثانيةً ساكنة، فيما عرف بـ "التنتنة"، وهي: تَنْ تَنْ[١٠٨].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن من ذهب إلى وجود مناسبة طبيعية من نوعٍ ما بين الصوت وما يشير إليه أو يوحي به، في مقابل

أولـــئك الـــذين أنكروا العلاقة من أي نوع بين الأمرين، قد استدلوا لتقوية وجهة نظرهم القائلة بالمناسبة بإيحاءات النون التنغيمية الغنائية المعبرة عن المشاعر الوجدانية والتطريب. وبقطع النظر عن تأييد إحدى وجهتي النظر ونفـــي الأخرى، وهو موضوع يطول ولا مجال للخوض فيه هنا، يكفي أن نـــرى أن من لمس من خلال ارتباط الصوت بما يوحي به علاقةً معينةً قد رأى بوضـــوح وجـــلاء في النون سمة التطريب، والتغني، وأداء المعاني الوجدانـــية بـــنغمة عذبـــة مستحبة. ويسير كلام حسن عباس الذي مضى الاستشهاد به قريبًا في هذا الاتجاه.

وبالـــتأمل فـــي كلام بعض الباحثين المؤيدين مذهبَ "الطبيعيين"، أي: القائلـــين بطبيعـــية المناســـبة بـــين أصوات اللغة ومدلولاتها، نجده ظاهر الوضـــوح في تأكيد اقتران النون بمشاعر الحزن والوجد والهيام من جهة، واقترانها من جهة أخرى أيضًا بمشاعر الفرح والبهجة والاحتفال. من ذلك مـــثلاً مـــا أظهـــرته دراسة نعيم علوية في الألفاظ النونية (حنين، وعنين، وأنـــين، ورنـــين، وهنين، وجنَّ، وغنَّ..) ومشتقاتها وما يتفرع عنها من دلالات، يوحي جلّها بالأصوات المعبرة عن ألم الجسد أو النفس، لكن ذلك مـــن بعـــض الوجـــوه ربما يعبر عن صوت يصدر عن فرحٍ أيضًا، حيث ((يتعلق ذلك الاختلاف بحقيقة الأضداد: صوت الشخص في الحزن يشتمل على نغمة بارزة من صوته في الطرب، والعكس صحيح))[١٠٩].

النون أداة لجبر نقص الألفاظ:

مـــن المعلوم أن بعض الألفاظ العربية تحتاج في بعض تصرفاتها واشـــتقاقاتها إلـــى حـــروف تـــزاد على حروفها؛ لإمكان الإتيان بالصيغة المطلـــوبة. ولهـــذا وجـــد في العربية كلمات عومل بعض حروفها الزائدة معاملة الأصلي؛ لغرض الوفاء بالصيغة من غير أن تلتبس بصيغة أخرى.

مـــن ذلـــك علـــى سبيل المثال: الميم في "تمسكن، وتمدرع"، من "مسكين، ومدرعة"، للحاجة إلى سبك "تفعلل" منهما، فجاءا في الظاهر على "تمفعل"، وهـــذه مسألة مشهورة، لا يعنينا في هذا المقام الخوض في تفاصيلها. وما يعنيـــنا هـــنا هو شأن النون التي جاوزت هذا الاعتبار إلى حدٍّ لا يمكن أن يكـــون لحـــرف آخـــر، وهـــز استحسان إقحامها ــ ولا سيما في العربية المعاصرة ــ في بعض الصيغ، حتى إن لم تكن في البنية أصلاً، أصليةً ولا زائـــدةً. ونتذكر بالتأكيد هنا الكلمات الشائعة في عصرنا الحالي التي يزاد فيها على أصل الكلمة في اشتقاقاتها المختلفة نونٌ، نحو "العلمنة" من العلم، و"الشعرنة"[١١٠] من الشعر، و"العقلنة" من العقل، و"العصرنة" من العصر أو مـــن المعاصرة، والشرعنة من الشرع، و"الشخصنة" من الشخص..إلخ[١١١]؛ ربمـــا لأنه لا يمكن الإتيان بمصدر غير ملبس من هذه الكلمات، فلُجئ إلى سبك مصدر آخر يشابه المصدر المأخوذ من الرباعي، ولم يوجد ما يصلح لجبر الثلاثي ويوصله إلى الرباعي من الحروف غير النون وحدها.

ويلتقـــي مـــع هذا النوع من الكلمات، من حيث إقحامُ النون على وجه الخصوص دون غيرها فيها، ما عبر عنه القدماء باسم التنوين الشاذ كتنوين "هؤلاءٍ"[١١٢]، غير أن هذا النوع شُبِّهَ فيه ما لا ينون بما ينون، وهو أيضًا في آخـــر الكلمـــة لا داخلها. لكننا يمكن أن نرى من وجوه الشبه بين النوعين العـــودةَ إلى صوت النون لإكمال ما يود المتكلم إكماله في اللفظ، ولجبر ما يـــرى الحاجة ماسة إلى جبره، سواء في داخل اللفظ أم من آخره. ويمكن استشفاف بعض ما يفسر اللجوء إلى النون في جميع ذلك دون غيرها أنها الأداة التـــي تعـــين علـــى مـــط الألفاظ وتمديدها من غير مساس بدلالتها المأخوذة من حروفها الأصلية الأساسية. وهي أيضًا الصوت المألوف الذي

يحقــق السكتات الخفيفة والوقفات اليسيرة في داخل العبارة، كما تقدم، مع الإبقاء على دلالات الكلمات على هيئتها كما هي.

ولعلنا بهذا نستطيع أن نصل بصورة أعمق إلى فهم تأكيد أعلام النحاة القــدماء أهميةَ النون في جبر نقص بناء الكلمة. ذهب أبو القاسم الزجاجي مثلاً في التعليل لمجيء النون في آخر نحو "جوارٍ وغواشٍ" في حالي الرفع والجر ــ مما يكون من صيغ منتهى الجموع ناقصًا، أي: أن حقه ألا ينون؛ لأنــه لا ينصــرف، نكرةً ولا معرفةً ــ إلى ((أن التنوين في هذا الجنس عِــوَضٌ من نقصان البناء))[١١٣]. ويستدل على ذلك بأن هذا النوع لا يدخله التــنوينُ في حال النصب؛ ((لأنه حين تمَّ بناؤه رجع إلى أصله فسلم))[١١٤]. ولذا يعد "جبر النقص" عند أبي القاسم أحدَ ثلاثة معانٍ رئيسة يدخل التنوين فــي الكــلام لأجلهــا، أما المعنيان الآخران فهما: الانفصال، والتنكير[١١٥]، وسترد مناقشة هذين المعنيين بعد قليل.

وبالــتأمل في الأسماء التي كان حقها أن تمنع من الصرف فلا يلحقها مــن آخرها التنوين، لكنها لقصرها وقلة حروفها تُصرف، نحو "هند ودعد ونــوح ولــوط..إلخ" من الأسماء الثلاثية ساكنة الوسط، نستطيع أن نرى بوضــوح ــ غيــر مسألة علاقة النون بخفة اللفظ كما يقول سيبويه ــ أن النون هنا جبرت النقص الملحوظ في الكلمة؛ لأنها بخلوها من النون مع قلة حروفها وسكون وسطها تصير أقل الأبنية، فلا يجبر قلتها غير النون؛ لأنها الحرف الذي لا تتغير بزيادته دلالة أصول البناء.

النون عَلَمُ الحذف والاستغناء:

ذكــر القــدماء قسمًا من أقسام التنوين سموه بــ "تنوين العِوَض". ويُقصــد بالعــوض هنا الاستعاضة بالتنوين عن جزء من العبارة، حُذف وعُــوِّض عــنه بالنون. فقد يعوض بالتنوين عن كلمة، ومن أمثلته عندهم

التنوين اللاحق لـــ "كل"، و"بعض". وقد يعوض بها عن أكثر من كلمة، أو عـــن جملة كاملة، ومنه التنوين في نحو "يومئذٍ، وحينئذٍ، وساعتئذٍ، وليلتئذٍ" ومـــا شـــابهها. والمحذوفُ بعد "إذ" المعوَّض عنه بالنون جملةٌ بكاملها إما اســـمية وإما فعلية. فالتقدير في قوله تعالى ﴿يومئذٍ يَصَّدَّعون﴾[١١٦]: يومَ إذ ذاك كـــذلك يصَّـــدَّعون[١١٧]. وفـــي قوله تعالى ﴿وأنتم حينئذٍ تنظرون﴾[١١٨] التقديـــر: وأنتم حين إذ بلغت الروح الحلقوم تنظرون. وقد يُعَوَّض بها عن جمل عدة، نحو قوله تعالى ﴿يومئذٍ تحدث أخبارها﴾[١١٩] الأصل كما ذكر ابن يعـــيش: يـــوم إذ تزلزل الأرض زلزالها، وتخرج الأرض أثقالها، ويقول الإنســـان مالها، فحذفت هذه الجمل الثلاث وناب التنوين منابها[١٢٠]. ويؤخذ من ذلك أن النون في هذه الحال من جهةٍ نابت عن جزء كبير من العبارة، هو جملة كاملة أو عدة جمل، ومن جهة ثانية استطاعت النون أنْ تُشْعِرَ ـــ وهـــي حرف واحد ـــ بمجرد اقترانها بهذا النوع من الكلمات بدلالةٍ معينة واضحة، لا يحتاج السامع مع ظهورها إلى إيراد المستغنى عنه.

والـــنون في هذه الحال تحديدًا تؤدي وظيفةً من الوظائف اللغوية التي تـــؤديها علـــى وجـــه الخصوص الضمائر. ذلك أن الضمائر تنوب مناب التكـــرار في العبارة؛ فما سبق الكلام عنه في أول أجزاء العبارة يُشار إليه فـــي آخـــرها بضميرٍ، يكون عائده ما يشير الضمير إليه، بدلاً من إعادته بلفظه. فالضمائر إذًا إحدى وسائل الاختصار والإيجاز في العربية[١٢١]. وهذا مـــا تؤديه أيضًا نون العوض النائبة عن إعادة أجزاء سابقة من العبارة لا يُحتاج مع النون إلى إعادتها.

وقـــد يعـــوَّض بالنون عن حرف من الكلمة، ومثاله ما علل به النحاة تشـــديد النون في لغة من شدد نون "اللذان واللتان" فقال: اللذانِّ واللتانِّ، أي بـــزيادة نـــون أخرى على نون الكلمة؛ عوضًا عن الياء المحذوفة، وتشديد

نون "هذان" و"هاتان" عوضًا عن الألف المحذوفة[١٢٢]. وكذا تعليل تنوين نحو "جوارٍ وغواشٍ" بأنه عوض عن الياء المحذوفة[١٢٣]. وقد يعوض بالنون عن الحركة، أو عن الحركة والتنوين، كما هو مذهب طائفة من النحويين في تعليل اقتران المثنى بالنون بأنها فيه عوض عما منع الاسم من الحركة والتنوين، ونسب هذا القول إلى سيبويه[١٢٤]. وكما هو مذهب بعضهم في عد تنوين نحو "مسلمات" تنوين عوض عن الفتحة التي كان يستحقها في حال النصب[١٢٥]. وواضح أن النون في هذه المواضع استعملت أيضًا لجبر النقص اللاحق للفظ على غرار ما سبق ذكره.

النون علَم الإعراب:

سبق أن التنوين يكون في الأسماء المعربة؛ تمييزًا لها عن المبنية من جهة، وعلامة على تمكنها وأصالتها في العربية، ولنفي نقص الإعراب فيها أو عدم اكتماله وتمامه من جهةٍ أخرى. وسمى النحاة هذا النوع من التنوين بتنوين الصرف، ويقال: تنوين التمكين والتمكُّن. فيدل عدم وجود النون على انتفاء أحد الأمرين: إما الإعراب بالكلية، وإما تمام التمكن. وقد لحظنا أن النون هنا تعد المثبتة لهوية اللفظ العربي والمؤكدة لأصالته.

النون علَم الانفصال والقطع:

يؤكِّد أبو القاسم السهيلي أن التنوين يلحق للدلالة على انفصال اللفظ عما بعده، فيقول: ((التنوين فائدته التفرقة بين المنفصل والمتصل. فلا يدخل إلا علامة لانفصاله مما بعده. ولذلك يكثر في النكرات؛ لفرط احتياجها إلى التخصيص بالإضافة، فإذا لم تُضَفْ احتاجت إلى التنوين؛ تنبيهًا على أنها غير مضافة. ولا تكاد المعارف تحتاج إلى ذلك إلا فيما قلَّ من الكلام؛ لاستغنائها في أكثره عن زيادة تخصيص. وما لا يُتَصَوَّرُ فيه الإضافة بحالٍ ــ كالمضمر والمبهم ــ لا ينوَّن بحالٍ. وكذلك ما دخلته

الألف واللام لا يحتاج إلى التنوين في شيء من الكلام. وهذه علة عدمه في الوقف؛ لأن الموقوف عليه لا يكون مضافًا إلى غيره، إذ المضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد، ولا يوقَف على بعض الاسم دون بعض))[١٢٦].

واستدل السهيلي على صحة اطراد إفادة التنوين انفصال اللفظ عما بعده بتوجيه أسباب الاستغناء عن التنوين فيما لا تنوين فيه على إرادة الانفصال في العبارة ورفع توهم الاتصال فيها. ومن ذلك مثلاً: توجيه تنوين العوض في "يومئذٍ، وحينئذٍ" على إرادة فصل "إذ" عن الجملة. واستدل بتنوين الترنم على إرادة الفصل بين شطور الأبيات في الإنشاد. ووجَّهَ عدم اشتمال غير المصروف (كالأعلام المؤنثة، والمعدول، والمزيد بحرفي الألف والنون، وصيغة منتهى الجموع، والمركب) على التنوين بعلل تتناسب إما مع إرادة المتكلم الإشعار بالاتصال، وإما لأنَّ اللفظ مما لا يُخشى على المخاطب توهم الانفصال فيه، فيُستغنى فيه عن عَلَم الانفصال والقطع[١٢٧].

ويشهد لكون التنوين علمًا على القطع، وعلى اختتام العبارة بما فيه النون، أن النون لا تجامع الإضافة؛ لأنَّ الإضافة تقتضي عند الانتهاء من نطق المضاف ترقُّبَ المضاف إليه. ويشهد لذلك أيضًا أن بعض الظروف كـ "قبل وبعد" مثلاً يتعدَّى فيها الأمر مجرد تعاقب النون والإضافة إلى أبعد من ذلك، وهو عدم ورود التنوين في حال الإضافة المنوية، وأنها لا تأتي إلا حين قطع الإضافة ظاهرة ومنوية؛ ففي ترك التنوين إذًا دلالة على نية الإضافة[١٢٨].

والمتتبع لأحكام الأسماء الستة، وما حار فيه القدماء من تلك الأحكام وأكثروا فيه الخلاف والمناقشة، يلحظ أن للنون بصورة خاصة في هذا الموضع آثارًا مهمة ينبغي التنبيه عليها، وتتصل تلك الآثار من جهاتٍ عدة

بقضـــية الاتصال والانفصال التي نبه عليها السهيلي، كما تتصل بما أشير إلـــيه في النون من جبر نقص الألفاظ. ذلك أنَّ هذه الأسماء الستة قصيرة؛ لأنها على حرفين، فتحتاج إلى جبرها بحرف ثالث. ولا يجبرها إلا التنوين فـــي حال الإفراد وعدم الإضافة (أبٌ، أخٌ..إلخ)، لكنها عند الإضافة تمس الحاجـــة إلـــى بيان اتصالها وعدم الوقف عليها، وهذا يلزم منه حذف علم الانفصـــال (النون)، فلا بد إذن من اقتراض ما يجبرها ويكون في الوقت نفسه صالحًا لقبول علامات الإعراب، فلما لم يوجد جيء بالحروف الثلاثة (الألف والياء والواو) الصالحة لأن تكون هي علامات إعراب كما تقبل أن تجبر النقص بعد أن كانت النون في حال حضورها الجابرة لنقص الأسماء الستة المبنية على حرفين. ونستنتج من ذلك ــ إضافة إلى دلالة النون على الانفصـــال ــ أولـــوية الـــنون فـــي هذه الكلمات وتقدمها على غيرها من الحروف؛ لأنه متى ما أمكن حضور النون عُدِل عن إعراب هذا النوع من الأســـماء بالحروف، وعاد إلى طبيعته من الإعراب بالحركات. وفي ذلك دلالة واضحة على الأثر الفاعل للنون حضورًا وغيابًا.

النون علَم الإعمال والزمن:

يتضام مع دلالة وجود التنوين على الانفصال والقطع، ودلالة عدمه علـــى الإضـــافة، كما أشير إلى ذلك قريبًا، دلالةٌ مهمة أخرى هي تقريب الاسم من الفعل بإعماله عمل الفعل لفظًا في حال الوجود وانتفاء العمل في حـــال العـــدم. فـــ "ضاربٌ زيدًا" ينتصب فيه زيد على المفعولية بتنوين ضارب، في حين يجر بالإضافة في "ضاربُ زيدٍ" من غير تنوين. وتتحول أيضًـــا دلالة "ضارب" مع التنوين زمنًا من الماضي إلى الحال والاستقبال. استشـــهد الكســـائي بمسألة الدلالة الزمنية التي يضفيها التنوين في الكلمة وجـــودًا وعـــدمًا علـــى عِظم قدر النحو وأهمية تعلمه، قال: اجتمعت وأبو

يوسف عند هارون الرشيد، فجعل أبو يوسف يذم النحو، ويقول: ما النحو؟ فقلت، وأردت أن أعلمه فضل النحو: ماذا تقول في رجل قال لرجل: أنا قاتلُ غلامك، وقال آخر: أنا قاتلٌ غلامَك، أيهما كنت تأخذ به. قال: آخذهما جميعاً. فقال له هارون: أخطأت، وكان له علم بالعربية، فاستحى. وقال: كيف ذلك؟ فقلت: الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي قال: أنا قاتلُ غلامك بالإضافة؛ لأنه فعل ماضٍ. فأما الذي قال: أنا قاتلٌ غلامَك بلا إضافة، فإنه لا يؤخذ لأنه مستقبل لم يكن بعد[١٢٩].

النون علَم التنكير:

يلحق التنوين آخر الأسماء للدلالة على أن الاسم نكرة، فيعاقبُ التنوين ما به يتعرف الاسم، نحو الإضافة أو التعريف بالألف واللام، ولا تجتمع النون وأداة التعريف. ولأهمية تعاقب التعريف بأدواته المتعددة والتنوين جعل بعضُ علماء العربية الوظيفةَ الرئيسةَ الفارقةَ للتنوين، والمقدَّمة على غيرها من سائر الوظائف، دلالتَه على التنكير. بل لقد تطرَّف بعضُ المحدثين في إعلاء شأن دلالة التنوين على مجرد التنكير، فجزم إبراهيم مصطفى في "إحياء النحو" بأنْ لا معنى للتنوين غير إفادة التنكير. ومع أنه تتبع أقوال السهيلي في تعليل منع صرف الكلمات غير المصروفة بغير علل المنع التسع المشهورة عند النحاة، واقتفى أثره في استنباط علة كل نوع خالٍ من الصرف، من غير إشارة إلى ذلك، توصَّل إلى هذه النتيجة ــ أعني دلالة التنوين على مجرد التنكير ــ مخالفًا بذلك ما توصل إليه سلفه أبو القاسم. وجاء في باب الممنوع من الصرف بقاعدة في تنوين العلم ((على غير ما وضع جمهور النحاة، بل على عكس ما وضعوا، وهي: الأصل في العلم ألا يُنوَّن. ولك في كل عَلَمٍ ألا تنونه. وإنما يجوز أن تُلْحِقَه التنوينَ إذا كان فيه معنى من التنكير وأردت الإشارة

إليه))[١٣٠]. وراح يثبت قاعدته التي صاغها بأدلة متعددة، سنجملها هنا؛ لأنها لا تخلو من أهمية لما نحن فيه من الإشارة إلى قوة دلالة النون على التنكير. ومن أدلته ما يأتي:

أ ــ أن العلم إذا عُيِّن تمام التعيين لم يجز أن يدخله التنوين، وذلك حين يُردَفُ بكلمة "ابن"، مثل: عليّ بن أبي طالب.

ب ــ قد يدخل التنوين في المعرفة؛ للإشارة إلى العموم وعدم التعيين، كما في "جاءني زيدٌ وزيدٌ آخر". وأحس العرب بعموم بعض الأعلام في بعض التراكيب، فأدخلوا عليها الألف واللام وأضافوها؛ إشارةً إلى عمومها، وقبلت التنوين للعموم المذكور.

ج ــ لا يتفق إبراهيم مصطفى مع النحاة في جعل التأنيث سببًا لمنع الصرف، بل يرى أن الأكثر في الأعلام المؤنثة أن تكون أسماء بلدان، ففيها الصرف وعدمه. وإجازة النحاة صرفه بنية المذكر (المكان) وعدم صرفه بنية المؤنث (البقعة) يدل على ورود الوجهين.

د ــ ذهب إلى تأويل بعض الممنوع من الصرف للوصفية والعدل بإرادة المعرفة كـ "جُمَع"، وبعضه الآخر بإرادة القلة كـ "مثنى وثُلاث". ثم انتهى إلى أن حذف التنوين هنا يكون بقصد شيءٍ من التعريف.

هـ – في "أفعل" التفضيل مع "من" شيءٌ من التعريف.

و ــ تركُ التنوين في الكلمات التي تنتهي بألف التأنيث المقصورة ليس القصد منه غير الاحتفاظ بعلامة التأنيث.

وأورد الباحث أدلةً أخرى، هي في أصلها للسهيلي كما أشرنا إلى ذلك سابقًا[١٣١]. غير أن السهيلي استدل بها على إفادة التنوين القطع والانفصال، وهي تفيد في الاستشهاد للوجهين معًا، ولهذا عمد مصطفى إلى الإفادة منها في هذا السياق، وهي:

ز ــ اشتراطُ عدمِ استعمال ما مُنع لأجل العلمية والعجمة نكرةً في العربية قبل وضعه علمًا يدل على لمح الأصل فيما ينون وما لا ينون؛ لأن التنوين عنده يدخل العلم للمح الأصل، مثلما يمنع عنه للمح الأصل.

ح ــ المركب المزجي المنقول أصلاً من لغة أخرى بقيت له صورة تأليفه، فليس له من أصلٍ كان منونًا قبل العلمية يمكن أن يُنَوَّنَ بعده لِلَمْحِهِ.

ط ــ علــة وزن الفعــل ليس لها من تأويلٍ إلا أن الفعلَ المنقولة هي عنه محرومٌ من التنوين.

ي ــ اشتراط النحاة في المعدول من نحو "عُمَر وزُفَر" ألا يكون قد استُعمل نكرةً يدلُّ على أن سببَ المنع عدمُ وجود التنوين في الأصل؛ إذ لا أصلَ له منونًا.

هــذا وقــد وجدتُ من الدارسين مَنْ ينسب إلى برجشتراسر القولَ بأنَّ التــنوين علامــة للتعــريف، على عكس ما قال به إبراهيم مصطفى[١٣٢]. وبالرجوع إلى نص محاضراته وجدته يُثبت التنوين عَلَمًا على التنكير، فلم يخالف في ذلك. غير أنه قال في أثناء كلامه في المسألة: إن التنوين ((ربما كان في الأصلِ علامةً للتعريف)). وقال: إن ((من الممكن أن يكون التنوين قــد كــان في الأصل أداةً للتعريف، ثم ضعف معناه المعرِّف، فقام مقامه الألف واللام، فصار التنوين علامة للتنكير)). ذلك لأنه كان بصدد تفصيل تطور بعض الألفاظ. ثم قال: ((ولو كان التنوين علامة للتنكير في الأصل لكان إلحاقه ببعض الأعلام صعب الفهم جدًّا))[١٣٣].

وممــا يــؤكد قــوة دلالــة التنوين على التنكير في مقابل التعريف أن المبنيات التي لا يلحقها التنوين في العادة يُجْتَلَب لها التنوين فيلحقها لمجرد الدلالــة علــى أنها نكرة، وللتمييز بين حال تنكيرها وحال تعريفها. فلفظ "ســيبويهِ" المبنــي علــى الكسر لمعيَّن مثلاً يدل لحاق التنوين آخره، أي:

سيبويه، على غير معين. وكذا أسماء الأفعال كـ "صهْ" تكون لسكوت مقصود تعريفه، في حين تعني "صهٍ" سكوتًا غير معيَّن[١٣٤]، وهكذا. وهذا الموضع هو ما سُمي التنوينُ فيه خاصة عند النحاة بتنوين التنكير.

ولست أوافق إبراهيم مصطفى في قصر دلالة النون على التنكير، ولا السهيلي في قصر دلالتها على الانفصال، مع الاعتراف بقوة دلالتها على الأمرين معًا، وعلى غيرهما ــ مما سبق ذكره ومما سيأتي ــ في الوقت نفسه أيضًا. ذلك أن النون وحدة صرفية (مورفيم) متعددة الدلالة، يعمد المتكلمُ إلى الإتيان بها، معتمدًا على ما اصطُلح في هذه الوحدة الصرفية على أدائه، في كل موضع مما ذكر أو سيُذكر. فلا موجب للاقتصار على دلالة دون أخرى. وبناء على ذلك لا أرى مانعًا من أن يعد تنوين نحو "مسلمات" مثلا تنوين مقابلة من جهة كونه يقابل نون "مسلمين" كما يقرر النحاة، وأن يعد في الوقت نفسه تنوين صرف من جهة كون الكلمة مصروفة[١٣٥]، وأن يعد تنوين تنكير من جهة كونه لا يجامع الإضافة أو التعريف بالألف واللام، وأن يعد دالا على انفصالها عما بعدها، وهكذا.

النون علَم التوكيد:

مرَّ بنا في أثناء عرض اللواصق النونية نونا التوكيد اللتان تلحقان الفعل؛ لغرض إفادة التوكيد فيه، وهما النون الخفيفة الساكنة، والنون الثقيلة المشددة. ومرَّ بنا أيضًا النون الثقيلة معتمدةً على الهمزة قبلها فيما يُعرف بأداة التوكيد والنصب "إنَّ" وأختها "أنَّ"؛ لتوكيد مضمون الجملة. وهو ما يلفت النظر إلى الصلة الوثيقة بين صوت النون ومعنى التوكيد، وإلى لجوء المتكلمين بالعربية إلى النون هنا أيضًا لأداء هذا الدور الدلالي المهم.

النون علَم الكثرة:

تقدم ذكر الألف والنون الزائدتين للدلالة على الكثرة في نحو لقمان، ونـــومان، وفضـــلان، وفـــرس عَدَوان: كثير العَدْو، وذئبٌ عَدَوان: كثير العُـــدوان. كمـــا مرَّ بنا أيضًا الجمع المزيد على بنية مفرده الأصلية ألفٌ ونـــون للدلالـــة على الكثرة؛ إذ هو أحد الأبنية المسماة بـــ "جمع الكثرة". ويمكـــن كـــذلك أن تُعَدَّ نونُ المثنى والجمع مما يشعر بالكثرة؛ لأن المثنى والجمـــع أزيد من الواحد على كل حال. ومن هذه الوجهة يمكن فهم كلام بعـــض النحاة في تعليل مجيء النون للجمع في مواضع خصت بها النون للدلالـــة علـــى الجميع الذي هو أكثر من الواحد، فمن ذلك الجمع في علة واحـــدة بـــين مجـــيء النون من أول المضارع إذا دل حصول الفعل من جماعـــة، نحو نكتب، نقرأ، نذهب..إلخ، ومجيء النون دالة على الجمع في غير ذلك نحو جمع المذكر السالم مثلاً[١٣٦].

النون إشارة إلى الإناث:

لحظـــنا فـــي أثناء الكلام على اتصال نون النسوة بالفعل، بوصفها لاصـــقة من لواصق الفعل تلحقه من آخره، أنها تأخذ من الأفعال جميع ما يسند إلى النسوة. فهي العلم الدال على الجنس في حال الإتيان بالأفعال في العبارة. كما لحظنا هناك أيضًا الصلة بين النون اللاحقة للفعل للدلالة على أنه مسند للإناث والنون المستعملة في ضمائر الإناث، غائباتٍ ومخاطباتٍ. ومعنـــى ذلك أن اللغة ربطت بين المعنى الأنوثي والنون في حال وجودها في مقابل المعنى الذكوري في حال الخلو منها.

(٨)

تداخلات في تصور النون:

ليس غريبًا أن يؤدي ورود النون بكثرة في الألفاظ إلى أن تتزاحم صور ورودها في أذهان المتكلمين، بحيث تطغى صورة على صورٍ وأحوالٍ أخرى، فيتوهم المتكلم في بعض المواضع أن حالاً ما للنون هي الحال الأخرى. وليس بالغريب أيضًا أن يسري الوهم في تمييز حال من أحوال النون عن غيرها على أذهان المشتغلين بالتحليل اللغوي للألفاظ والتراكيب من أهل العلم والدارسين، قديمًا أو حديثًا على السواء.

حار علماء العربية مثلاً في كلمة "معَ" حين تنون، فتصير: "معًا". إذ لحظ بعضهم هنا أن "معًا" لا يمكن أن تكون هي "مع" الثنائية منونةً؛ لأنها على هذا الاعتبار ينبغي أن تكون في حال الرفع: "معٌ"، وفي حال الجر: "معٍ"، ولم يرد عن العرب مثل ذلك، بل قالوا: "الزيدان معًا" بالفتح والتنوين. ولذلك ذهب فريقٌ منهم إلى أنها في حال التنوين ثلاثية كـ "فتى"، وفي حال عدم التنوين ثنائية كـ "يد"، وهو مذهب يونس والأخفش، وأيدهما ابن مالك[١٣٧]. وقد استقصى البحث في هذه الكلمة مفردة ومضافة ــ لهذا الإشكال ــ عددٌ من المعاصرين، من بينهم عباس حسن في (النحو الوافي)[١٣٨]، والدكتور رياض الخوام في كتاب ("مع" في الدرس النحوي)، الذي أفاض في تفصيل هذه المسألة، وسأكتفي ــ اختصارًا ــ بالإحالة إلى الصفحات المطولة في هذا الشأن في بحثه[١٣٩]. غير أنَّ ما ينبغي التنبيه عليه هنا، ويتصل بما نحن فيه، أنَّ النون حين حضرت في إحدى صور استعمال اللفظة كان على النحاة أن يجدوا تصورًا واضحًا لما استقر في ذهن المتكلم عنها في هذه الحال، مقارنةً مع تصوره للفظة نفسها في الأحوال والمواضع الأخرى التي تخلو فيها من النون. ذلك لأن النون خاصة يؤتى بها في نهايات الألفاظ وحدة صرفية لأداء

وظائـــف لغوية مستقرة في أذهان أصحاب اللغة، سبق التنويه عنها، فلا مفر إذن مـــن ظهور الإشكال حين يستتبع ظهورها في حالٍ ما شذوذًا أو خروجًا عـــن المألوف، أو حين تصير بها اللفظة ليست على القياس المطرد فيها من غير نون.

ونجد هذه المسألة ماثلةً مرة أخرى مع لفظة أخرى هي "لَدُنْ". إذ إنَّ إحدى اللغات الواردة عن العرب فيها "لَدَنْ" بفتح الدال، وهو الأمر الذي أثار إشـــكالاً فـــي تصـــور النحاة حقيقةَ اللفظة بين كونها ثنائية منونة (أي: لَدًا) وكونها ثلاثية (أي: لَدَنْ). وهذا الأمر عني بمناقشته بالتفصيل أيضًا الدكتور الخوام في دراسةٍ خصَّ بها "لدن ولدى"[١٤٠]. وتطرَّق الباحثُ في دراسته إلى رســـم الكلمة بالتنوين في مصادر النحو الأصول كبعض نسخ كتاب سيبويه، وتســـهيل ابـــن مالك. غير أن ما لم أجده في دراسته ــ وأظنه أنا أقرب إلى الصـــواب ــ أن اللفظة تحتمل أن تكون "لدى" منونةً؛ فيصح لذلك أن تُرسَمَ (لَـــدًى) كفتًى مثلاً. ويؤنس بقرب ذلك أن الباحث أشار إلى أن الفيروزآبادي مـــثَّلَ لهـــا في القاموس بقفا[١٤١]. على أننا مع ذلك ما نلبث أن نلمح في هذه القضـــية بعض مظاهر التداخل في التصور بين التنوين بوصفه منفصلاً عن الكلمة والنون بوصفها أحد مكونات اللفظ المتصلة به، أصليةً أو زائدة.

إن ممـــا يـــؤكد التداخل في أذهان المتكلمين بالعربية هنا بين الصوت بوصفه الوحدة الصرفية المؤدية معنى تركيبيًّا (التنوين) والصوت بوصفه أحـــد مكونات اللفظ (النون)، أنَّ العرب نصبوا لفظ "غدوة" بعد "لدن"؛ لأن ســـيبويه يقرر أن علة النصب عند من نَصَبَ بها ((كأنه ألحقَ التنوينَ في لغة من قال: "لَدُ"، وذلك قولك: لَدُن غدوةً))[١٤٢]. وهذا الأمر يؤكده أيضًا ابن جنـــي، فـــيقول: ((شـــبهوا النون في "لدن" بالتنوين في "ضارب"، فنصبوا "غدوة"؛ تشبيهًا بالمميز نحو "عندي راقودٌ خلاًّ، وجبةٌ صوفًا"، والمفعول في

نحـــو "هـــذا ضاربٌ زيدًا، وقاتلٌ بكرًا". ووجهُ الشبه بينهما اختلافُ حركة الـــدال قـــبل النون؛ وذلك لأنه يقال: لَدُن، ولَدَن، بضم الدال وفتحها، فلما اختلفت الحركتان قبل النون شابهت النونُ التنوينَ. وشابهت الحركتان قبلها باخـــتلافهما حـــركات الإعراب في نحو "هذا ضاربٌ زيدًا، ورأيتُ ضاربًا زيدًا"؛ لأنهم قد حذفوا النون فقالوا: لَدُ غدوةً، كما يحذف التنوين تارةً ويثبت أخـــرى، فلما أشبهت النونُ التنوينَ من حيث ذكرنا انتصبت "غدوةً" تشبيهًا بالمفعول))[١٤٣].

ولم يقتصر أمر التداخل بين حالين للنون على ما تقدَّمَ ذكرُه من تداخل بـــين كونها من بنية اللفظ وكونها تنوينًا زائدًا يراد به معنى تركيبيًّا معيَّنًا، بل تشابكت التصورات أيضًا بين الحالين المذكورتين وحال نون أخرى هي نـــون التوكـــيد الخفيفة. إذ يلحظ على سبيل المثال إمامُ النحاة سيبويه، عند تعلـــيله لفـــتح دال "لـــدن"، شبهًا في ذهن المتكلم بالعربية بين "لَدَنْ غدوةً" و"اضربَنْ زيدًا"، من حيث إن من فَتَحَ ((كأنه أسكن الدال ثم فتحها، كما قال "اضـــربَنْ زيـــدًا"، ففتح الباء لما جاء بالنون الخفيفة))[١٤٤]. ولا يخفى على المتتـــبع لكـــتب الـــنحاة كثرة إيراد وجوه الشبه بين التنوين ونون التوكيد الخفـــيفة في مواضع لا تكاد تحصى من مؤلفاتهم[١٤٥]. وهذه المسألة يشبهها أيضًا من بعض الوجوه تزاحم نونين أو أكثر ترد جميعًا على اللفظ، فحين تحـــذف إحداها يخفى أي النونات حذف وأيها أبقي. من ذلك مثلا ما ذكره ابن هشام في ﴿تأمروني﴾[١٤٦] بنون واحدة، فقيل الباقية نون الرفع وقيل نون الوقاية[١٤٧].

ومن قبيل الألفاظ المذكورة لفظُ "كأيِّنْ" الذي يفضي ظاهره بالضرورة إلـــى اللـــبس؛ إذ تؤدي صورته إلى التردد بين كونه لفظًا مرتجلا مستقلا بنفســـه وكونه الأداة المعروفة (أي) منونةً مسبوقةً بحرف التشبيه "الكاف".

يقــول ابــن فارس: ((سمعت بعض أهل العربية يقول: ما أعلم كلمةً يثبت فــيها التنوين خطًّا غير هذه))[١٤٨]. ويزيد من قدر الاضطراب والحيرة هنا أن الأداة "أي" مــتعددة صور الورود والاستعمال شكلا ومضمونًا. أما من حــيث الشكل فمع أنها ترد مبنية تعرب كذلك (أي: تنون)، وأما من حيث المضمون فإنها تأتي في الخبر والطلب، استفهامية وموصولة ووصلة للنداء ونحــو ذلــك. ونجد في الوقت نفسه أنَّ لــ "كأين" خصوصيتها؛ إذ تؤدي دلاليًّا معنى خاصًّا، وترد تركيبيًّا متبوعة بحرف الجر "من" في الغالب.

ولعــلَّ من أوضح صور التداخل الموصوفة آنفًا ويحسن ذكره هنا ما نــراه دومًا من الالتباس بين "إذًا" و"إذن"، ولا سيما في تحديد أي الرسمين صــحيح، وكــذا الحال التي يصلح لها على وجه التحديد أحد الرسمين ولا يصــلح الآخــر. وهو التباسٌ لا يكاد ينجو منه أحد من مستعملي العربية، حتــى أهل الاختصاص منهم. ولهذا النوع من اللبس مستويات عدة، أدناها استشــكال غيــر المتخصصــين الفصــل بين أحوال رسم الكلمة بالتنوين ورســمها بالــنون، أما أعلاها فهو ما يُعنى به أهل الاختصاص من تعيين الحــدود الدقــيقة بين ماهية الكلمة في كل حال. لأن ما قبل النون الساكنة ينبغي تعيينه بالضبط الدقيق في كل حال على حدة، غير أن الصعوبة تكمن فــي أنَّ تصوُّر ماهية النون الساكنة هو الفيصل في تعيين ماهية ما قبلها. ولهذا يحتمل ما قبل النون أن يكون حينًا "إذا" منونة وحينًا أداة ثلاثية مبنية علــى حــرف الــنون في ضمن بنيتها، وتحتمل أن تكون اسمًا وأن تكون حرفًا، وتحتمل أن تكون مركبة كما تحتمل البساطة، وهكذا. وفي كل حال لا بد من وجود مسوغات قوية ترجِّح اعتبارًا على آخر، وتبعًا لذلك تتبلور في الأذهان بوضوح وجلاء حال النون. ومن أجل ذلك لم يغفل النحاة عن بحــث هــذه المســألة، فذكــروا مواضع رسمها بالنون ومواضع رسمها

بالتـــنوين، كما ذكروا أن الخلاف في الكتابة تابعٌ للخلاف في تصور أصل الكلمة[١٤٩].

ومـــن بين صور الالتباس الشائعة في النون نطقًا وكتابةً التباسُ الميم المشددة في "إمّا" بالنون الساكنة المدغمة في الميم في "إنْ ما"، وكذلك "أمّا" و"أنْ مـــا"، و"إلا" و"إنْ لا"، و"ألاّ" و"أنْ لا". إذ كثيـــرًا مـــا تتداخل الصور المذكـــورة المخـــتلفة في أذهان المتكلمين، وكذا في أذهان الكاتبين وبعض الدارسين. ومن مظاهر ذلك أنَّ "إن ما" التي هي "إنْ" الشرطية داخلةً على "مـــا" كتـــبت في المصاحف "إما" في نحو قول الله تعالى ﴿فإما ترين﴾[١٥٠]، ويتضـــح كونها إن الشرطية من السياق ومن اقترانها بنون التوكيد، لكنها عند عدم وضوح السياق وتعيينه تتداخل مع إما المشددة الميم. وقد نبه على هـــذا الاشـــتباه والتداخل المرادي حيث قال بعد أن فصل القول في "إما": ((وتشـــتبه بلفظ "إما" المتقدمة "إما" المركبة من "إن" الشرطية و"ما" الزائدة، نحو ﴿وإما تخافنَّ من قوم خيانةً﴾))[١٥١]. ونبه ابن هشام على أن "أمّا" التي في قول الشاعر:

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع

ليست "أمّا" المضعّفة الميم، بل هي "أن" المصدرية و"ما" الزائدة[١٥٢]. كما نبه فـــي موضع آخر عند حديثه عن "ألا" المشددة على أن "ألا" التي في قوله تعالى ﴿ألا تعلوا علي﴾ [١٥٣]ليست من أقسام "ألا" بل هي "أن" الناصبة و"لا" النافية، أو "أن" المفسرة أو المخففة من الثقيلة و"لا" الناهية[١٥٤]. وفي "إن لا" و"إلا" نلحـــظ ابتداءً أن أداة الاستثناء "إلا" نفسها التي تبدو في الظاهر أداة مستقلة غير ملتبسة بغيرها لم تخل في تحليل القدماء من اشتمام كونها "إن" و"إلا" وهو مذهب الفراء[١٥٥]. وبسبب هذا النوع من الاشتباه نبه غير واحد

مـــنهم علـــى أن "إلا" في نحو قوله تعالى ﴿إلا تفعلوه تكن فتنة﴾[١٥٦] ـــ مع وضوح سياق المعنى في الآية ـــ مركبة من "إن" و"لا" وليست "إلا" وحدها كما يوحي بذلك رسمها[١٥٧].

ونقل بعض علماء العربية اشتباهًا عند بعض العرب بين ما فيه النون أصـــلية وزائدة. حكى أبو العلاء المعري ـــ نقلا عن الفراء ـــ أن العرب يشـــبهون الـــنون الأصلية بالزائدة، يقولون: مررتُ بطحّانَ، أي بمنعه من الصـــرف؛ تـــداخلا بين ما نونه أصلية على زنة "فعَّال" كهذا وما فيه ألف ونون زائدة على زنة "فعلان"[١٥٨]. ومن ذلك قول الشاعر:

أتت بركات الأرض من كل وجهةٍ وأصبح غصن العيش فينانَ أخضرا

نســـتطيع في ضوء ما تقدم أن ننظر إلى صنيع كُتَّاب المصاحف وعلمـــاء الوقف والائتناف من زاوايا مختلفة، لعل من أهمها زاوية التشابه بـــين عـــدة صور تحتملها النون، منها التي تكون من بنية اللفظ أو تكون مخالطـــةً لبنيتها ولها صور عدة، ومنها ما هو زائد عليها وله صور عدة أيضًـــا. وينبغي أن نعي أن الخلاف في مواضع الوقف ، ومن ذلك الوقف علـــى الكلمة بالنون أو بالألف مثلا، لا ينفك عن الخلاف في تصور حدود بنية الكلمة الأصلية وزوائدها.

إن مـــن الضـــروري بمكـــان أن تتداخل صور النون في نهايات الكلمات والعبارات، بل نستطيع أن نؤكد أن الطبيعي غير المستنكر هو أن تتشابك صور النهايات النونية إلى حد الاختلاط والغموض والالتباس على الـــنحو الذي فصلناه فيما سبق، لا أن تكون واضحة جلية. والسبب في ذلك هـــو أن العـــربية أَلِفت إقحامَ النون في خواتم الكلمات لأداء المعاني الثرية المتـــنوعة؛ فلابد أن يلتبس ما كانت النون في بنيته أصلا وما أقحمت فيه

لغرض، ولا مفر أيضًا من أن تلتبس الأغراض التي أُقحم الصوت النوني للتعبيـــر عـــنها بعضـــها ببعض. ومن جهة أخرى كان لا مفر من التباس الأشـــكال الكتابـــية التـــي اختيرت لتمثيل النون في بعض الأحوال وتُباين أشـــكالاً اختيـــرت لتمثيلها في أحوال مختلفة أخرى. فالتنوين اختير لتمثيله تَكـــرار الحـــركة التـــي هي في أصلها تعبر عن الحالة الإعرابية، والنون اختيـــرت لهـــا صورة الحرف، فاختلط هذا بذاك حين اختلط تصور ماهية الكلمة.

(٩)

خاتمة:

رأينا على مدى الصفحات الماضية سعة دخول حرف النون في ألفاظ العربية، وكثرة اعتماد اللغة على هذا الصوت في أداء المعاني الكثيرة. فهو علامة للتمكن والصرف والإعراب والخفّة، ودليل من أهم أدلة انتساب اللفظ للعربية وأصالته فيها، ووحدة صرفية دالة على التنكير، وعلى الانفصال والقطع، وعلى الإعمال والزمن، وعلى الحذف والاستغناء، ووسيلة الأداء المقطعي، وعَلَم على التوكيد، والكثرة، والتأنيث، وقرينة التطريب والتغني، وأداة جبر نقص الألفاظ. وهو لاصقة أو جزء من لاصقة في كثير من الألفاظ، فيكون تارة علامة إعراب وجودًا وعلامة إعراب عدمًا، وتارة لوقاية الفعل من الكسر، وتارة لبناء صيغة صرفية دالة على معنى أو لبناء جزء منها، وتارة ضميرًا مستقلا أو لبناء جزء من ضمير. وهو أيضًا يدخل في بنية ألفاظ اللغة أصلا فاء وعينًا ولامًا بكثرة لافتة، ويكون بدلا، وزائدًا شبيهًا بحروف المد لا تمتنع زيادته في موضع من مواضع الكلمة، وشبيهًا بالمد أيضًا بما فيه من غنة واستطالة، أي: بخصائصه الذاتية حتى إنه يقبل الامتزاج بالأصوات الأخرى وتتغير صفاته ومخرجه بتغير الأصوات المقترنة به. وهو مما تنتهي به كلمات العربية حتى قيل: إنه صوت يحسن السكوت عليه في العربية. وهو أيضًا — لتنوع وجوه دخوله على الألفاظ تنوعًا ثريًّا، مع اختلاف دلالة كل وجه عن غيره — تتزاحم هذه الوجوه في أذهان المتكلمين، كما تتزاحم في أذهان المحللين اللغويين، حتى ليلتبس وجهٌ منها أو أكثر بغيره. ومنبع ذلك كما لا يخفى اعتمادُ اللغة على هذا الحرف في مواضع كثيرة لأغراض كثيرة أيضًا. وذلك أمر لا شك لم يحظ به حرف هجائي آخر، حتى أَشْيَع الحروف أو أكثرها دورانًا في بنية الألفاظ. أفلا يمكن بعد هذا أن نزعم أن العربية لغة النون؟

Abstract

The Nasal Consonant [N] in Arabic

This paper deals with one of the Arabic consonants that defined by some characteristics Phonetic Features that are absent from other consonants in Arabic, and on which speakers rely in an exceptional way to express a large number of different linguistic functions. This consonant is the Dental Alveolar Liquid /N/. For this purpose, this paper discusses a set of phonetic features that make this sound a special linguistic toll in Arabic worthy of study.

The study starts from the assumption that sounds in a language differ in a clear way in how the language use them, on the first hand, to form the structure of its sound inventory, and on the other hand, in using them as morphological unites to express different semantic categories.

It concludes with a prove that the Dental alveolar Liquid consonant is, par excellence, the Arabic linguistic toll that surpasses any other consonants in either directions.

Moreover, this consonant has some special characteristics for expressing some functions that speakers do not rely on any other sound in Arabic to express.

The final aim of this paper is to explain the motivations that made Arabic rely heavily on this consonant.

ملخص البحث

تُعنـــى هـــذه الورقة بالنظر في أحد أصوات اللغة العربية، له من الخصـــائص مـــا ليس لسائر الأصوات والحروف، ويعتمد المتكلمون عليه بصـــورة اســـتثنائية غيـــر معتادة؛ لأداء طائفة هائلة من الوظائف اللغوية المختلفة، هو صوت "النون". ويقدم البحث في هذا الاتجاه مجموعة الملامح التـــي تجعـــل مـــن صوت النون أداة لغوية مميزة جديرة بالتأمل. وتنطلق الدراسة من التسليم بأن أصوات اللغة تتفاوت تفاوتًا واضحًا في مدى اتكاء اللغة عليها في تكوين بنية ألفاظها من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى في استعمالها وحـــداتٍ صـــرفيةً لتأدية التنوعات الدلالية المختلفة، وتنتهي إلى إثبات أن النون هي الأداة اللغوية العربية الأولى التي تتقدم على غيرها بمراحل في كـــلا الجانبـــين. وتنفـــرد النون فوق ذلك بوظائف مهمة جدًّا لم يعهد بها المـــتكلمون لصوتٍ ما من الأصوات اللغوية الأخرى. كما تنتهي الدراسة إلـــى الإفصاح ضمنًا عن أسباب ميل العربية إلى التعويل على النون كثيرًا دون غيرها.

الهوامش والمراجع:

١ - انظر ظاظا، حسن. كلام العرب ط ٢، دمشق: دار القلم، وبيروت: الدار الشامية، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م (ص ٢٦)، الزيدي، قاصد ياسر. الضاد في العربية بين نطق القدامى ونطق المعاصرين، مجلة العرب ــ ج ٥، ٦ ــ ٣٧ ذو القعدة وذو الحجة ١٤٢٢هـ (ص ٢٣٢).

٢ابن الجزري، النشر في القراءات العشر. إشراف علي الضباع. بيروت: دار الكتب العلمية (٢٢٠/١).

٣- انظر السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار الفكر (٢٠٩/١).

٤ - كلام العرب ص ٢٩ ــ ٣٠.

٥- السابق ص ٢٨.

٦ -الضاد في العربية ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤.

٧ - انظر الصفاقسي، علي بن محمد. تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين، ط ١، بيروت:دار الكتب العلمية، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م (ص ٧٤). وعمايرة، إسماعيل أحمد. بحوث في الاستشراق واللغة، ط ١، عمّان: دار البشير، سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م (ص٢١٣).

٨ -انظر الهندي، المتقي. كنز العمال، موقع الوراق على الإنترنت (ص ١٤٤٤).

٩- من ذلك مثلاً كتاب "الاعتضاد في معرفة الظاء والضاد" لابن مالك. ونظم الحريري في المقامة الحلبية، وهي المقامة السادسة والأربعين، أبياتًا توجز الكلمات التي وردت بالظاء، وبمعرفتها يُفصل ما يكون بها عما يكون بالضاد. انظر: مقامات الحريري بشرح الشريشي، دار الكتب العلمية (٢ / ٣٣١)، والمزهر (٢٨٢/٢ ــ٢٨٨).

١٠ - ابن الجزري، التمهيد في علم التجويد. تحقيق علي حسين البواب، ط ١، الرياض: مكتبة المعارف، سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م (ص ١٢٤).

[11]- انظر إحصائيات جذور لسان العرب التي أجراها الدكتور علي حلمي موسى، ونقل نتائجها الدكتور أحمد مختار عمر في دراسة الصوت اللغوي، القاهرة: عالم الكتب، سنة ١٤١١هـ/١٩٩١م (ص ٣٩٣ وما بعدها).

[12]- الخولي، محمد علي. الأصوات اللغوية، ط ١، الرياض: مكتبة الخريجي، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م (ص ١١٧ ــ ١١٩).

[13] -ابن منظور، لسان العرب، ط ١، بيروت: دار صادر، سنة ١٤١٠هـ (مادة ضاد).

[14]- ينظر حسان، تمام. مناهج البحث في اللغة، الدار البيضاء: دار الثقافة، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م (١٢٠ ــ ١٢١).

[15]- ابن جني، أبو الفتح عثمان. سر صناعة الإعراب، تحقيق الدكتور حسن هنداوي، ط ١، دمشق: دار القلم، سنة ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م (١ / ٢١٨). والنشر في القراءات العشر ١/٢٠٥.

[16]- كلام العرب ص ٢٧.

[17]- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان. الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت: عالم الكتب (٤ /٤٣٢ ــ ٤٣٣).

[18]- كلام العرب ص ٢٨. وينظر في الكلام على الاضطراب في وصفها بين القدماء والمحدثين مثلا: بشر، كمال محمد. علم اللغة العام ــ الأصوات، القاهرة: دار المعارف، سنة ١٩٨٦م (ص ١٠٤ ــ ١٠٨). و: شاهين، عبد الصبور. في التطور اللغوي، ط ٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م (ص ١٩١ ــ ١٩٥).

[19] - قال ابن فارس: ((ومما اختصت به العرب الحاء والظاء. وزعم ناسٌ أن الضاد مقصورة على العرب دون سائر الأمم)). الصاحبي، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي (ص ١٢٤).

[20] - من ذلك مثلا: الموضح المبين لأقسام التنوين لمحمد بن محمد بن أبي اللطف العشـــائر، والنون وأحوالها في لغة العرب لصبحي عبد الحميد عبد الكريم، والنون

فـــي اللغة العربية ـــ دراسة لغوية في ضوء القرآن الكريم لمصطفى زكي التوني، وظاهـــرة التـــنوين فـــي اللغة العربية لعوض مرسي جهاوي. وفصول من بعض الكتب، كفصل التنوين من كتاب فقه اللغة المقارن لإبراهيم السامرائي، وغير ذلك. وانظر ما سيأتي في إحالات الهوامش التالية على هذه الكتب والفصول.

[٢١] – انظر لسان العرب (مادة نون)، وانظر ما سيأتي في دلالات النون ووظائفها من هذا البحث.

[٢٢] –ا لشوكاني، محمد بن علي بن محمد. فتح القدير، بيروت: دار الفكر (٣ /٤٢٠).

[٢٣]– القرطبـــي، أبـــو عـــبد الله محمـــد بن أحمد. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبـــي) تحقـــيق أحمد عبد العليم البردوني، ط ٢، القاهرة: دار الشعب، سنة ١٣٧٢هـــ (٣٢٣/١٨). وينظر أيضًا: السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين. الدر المنثور، بيروت، دار الفكر، سنة ١٩٩٣م (٢٤٢/٨)، فتح القدير ٢٧٠/٥.

[٢٤] – ابـــن كثيـــر، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، بيروت: دار الفكر، سنة ١٤٠١هـــ (٤٠٢/٤).

[٢٥]– انظر عباس، حسن. خصائص حروف اللغة العربية ومعانيها، منشور في موقع اتحاد الكتاب العرب على الإنترنت (الفصل الخامس).

[٢٦]– ينظـــر الســـيوطي، عـــبد الـــرحمن جلال الدين. الإتقان في علوم القرآن، بيروت: عالم الكتب (٢٩/٢).

[٢٧]– الإتقان في علوم القرآن ٢٩/٢.

[٢٨] – لسان العرب (مادة نون).

[٢٩] – السابق المادة نفسها.

[٣٠] – ذكـــروا بعض ما نطقت به العرب من أسماء الحروف ولم ترد به الحرف، نحو قول الشاعر: (قلنا لها قفي قالت قاف)، ونحو كلمة "حرف" نفسها التي تعني الـــناقة. قـــال أبو العلاء المعري: (وحرفٍ كنونٍ تحت راءٍ ولم يكن بدالٍ يؤم الرســـم غيَّـــره الـــنقطُ). وهو من شواهد التورية. ومعنى الحرف في هذا البيت

[٤٣]- السابق ص ٣٩٨.

[٤٤] - انظر خصائص حروف اللغة العربية ومعانيها: المقدمة، والفصل الخامس.

[٤٥] - انظر الجداول الإحصائية للمواد المعجمية التي وقعت فيها النون فاء وعينًا ولامًا: التوني، مصطفى زكي. النون في اللغة العربية ــ دراسة لغوية في ضوء القرآن الكريم، الحولية السابعة عشرة، ١٤١٦ / ١٤١٧هـ، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت (ص ٤٤ ــ ٤٦).

[٤٦]- سر الصناعة ٤٢/١.

[٤٧] - سر الصناعة ٤٤٥/٢ ــ ٤٤٦.

[٤٨] - الكتاب ٣١٩/٤، ٣٢٣.

[٤٩] - السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين. الأشباه والنظائر، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم، ط ١، بيروت: مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٠٦هـ (٣٦٠/٢ ــ ٣٦٤).

[٥٠] - سر الصناعة ٤٤٠/٢.

[٥١] - السابق ٤٣٦/٢.

[٥٢] -انظر السابق ٤٤١/٢ ــ ٤٤٢.

[٥٣] - انظر ابن يعيش، موفق الدين. شرح المفصل، عالم الكتب ٣٦/١٠، وابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط ٣، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٤٠٨هـ (٨٤/٢ ــ ٨٦)، وانظر أيضًا بقية الباب. وابن سيدة، المخصص، تصحيح مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربي ببيروت، ط ١، سنة ١٤١٧هـ (١٨٣/٤ ــ ١٨٥). واللباب في علل البناء والإعراب ٣٣٣/٢ ــ ٣٣٤.

[٥٤] -اللباب ٣٣٤/٢.

[٥٥] - شرح المفصل ١٠ / ٣٣.

[٥٦] -انظر المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. المقتضب، تحقيق عبد الخالق عضيمة، بيروت: عالم الكتب (٣١٨/٣)، وابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل.

الـــناقة. فمـــراده أن هـــذه الناقة لضعفها وانحنائها مثل "نون" أي: حرف النون المعـــروف، تحت راءٍ، أي: رجل يضرب رئتيها، ولم يرفق بها في السير، فهو غيـــر دالٍ، والدالـــي: هـــو الرفيق. ويؤم بها دارا غيَّرَ المطرُ رسمها، إذ النقط المطـــر. ينظر الحموي، تقي الدين أبو بكر. خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق عصام شعيتو، ط ١، بيروت: دار ومكتبة الهلال، سنة ١٩٨٧م (٢ / ٣٩).

[٣١]- انظر سر الصناعة ٤٧/١.

[٣٢]- السابق ٦٠/١ ــ ٦٤.

[٣٣]- انظـــر ابن يعيش، موفق الدين. شرح الملوكي، تحقيق فخر الدين قباوة، ط ١، حلب: المكتبة العربية، سنة ١٣٩٣هـــ (ص ١٧٢). والأنباري، أبو البركات. أســـرار العـــربية، تحقـــيق محمد بهجت البيطار، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة ١٤١٣هـــ (ص ٣٦).

[٣٤]- العكبـــري، أبـــو الـــبقاء. اللـــباب في علل البناء والإعراب، تحقيق غازي طليمات، ط ٢، دمشق: دار الفكر، سنة ١٤١٦هـــ (١٨٠/٢، ٣١٧)، والتبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية (١٩/١).

[٣٥]- اللباب ٢١٩/١، ٢٢٦/٢.

[٣٦] - ينظـــر مثلا: الجمع بين النون والميم في القوافي في سر الصناعة ١ /٤٢٢ ــ ٤٢٣.

[٣٧]- أنيس، إبراهيم. اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف بمصر (ص ٢٨).

[٣٨]- جهـــاوي، عوض المرسي. ظاهرة التنوين في اللغة العربية ط ١، القاهرة: مكتبة الخانجي، الرياض: دار الرفاعي، سنة ١٤٠٣هـــ/١٩٨٢م (ص ٣٦).

[٣٩]- ينظر مناهج البحث في اللغة ص ١٣٣ ــ ١٣٥، وظاهرة التنوين ص ٣٦ ــ ٣٧

[٤٠] - مقدمة لسان العرب (باب ألقاب الحروف وطبائعها وخصائصها).

[٤١] -الخولي، الأصوات اللغوية ص ١١٧، ١٣٩.

[٤٢] - دراسة الصوت اللغوي ص ٣٩٧.

الأصـــول في النحو، تحقيق الدكتور عبد المحسن الفتلي، ط ١، بيروت: مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٠٥هـ (٢٤٢/٣)، شرح الملوكي ص ١٦٦ ــ ١٦٧، ١٦٩.

[٥٧]- انظر ابن الحاجب، الشافية في علم التصريف، تحقيق حسن أحمد عثمان، ط ١، المطبعة المكية، سنة ١٤١٥هـ (ص ٧٠)، وشرحها للرضي الإستراباذي، تحقيق محمد نور الزفزاف وآخرين، بيروت: دار الكتب العلمية، سنة ١٤٠٢هـ (٣٣٤/٢ ــ ٣٣٥).

[٥٨] - سر الصناعة ١٦٩/١.

[٥٩] – انظر عضيمة، محمد عبد الخالق. المغني في تصريف الأفعال، دار الحديث (ص ٨٧).

[٦٠] – الكتاب ٣٢٣/٤.

[٦١] - انظر المغني في تصريف الأفعال ص ٨٨.

[٦٢] - المغني في تصريف الأفعال ص ٨٨ ــ ٨٩.

[٦٣] - المزهر ٢٥٩/٢ ــ ٢٦٠.

[٦٤] – سر الصناعة ٤٤٤/٢.

[٦٥] -اللباب ٢٦٠/٢.

[٦٦] – انظر شرح الشافية ١٠٨/١.

[٦٧] - انظر الزبيدي، ائتلاف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة، تحقيق الدكتور طارق الجنابي، ط ١، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، سنة ١٤٠٧هـ (ص ١٢٦).

[٦٨] – الإربلي، علاء الدين. جواهر الأدب في معرفة كلام العرب، تحقيق الدكتور حامد أحمد نيل، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م (ص ١٥٧).

[٦٩] – انظـــر الأنصاري، ابن هشام. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق محمـــد محـــي الدين عبد الحميد، مكة المكرمة: المكتبة الفيصلية (٩٤/٤) وينظر (هامش المحقق رقم ٤).

[٧٠] – انظر الإشبيلي، ابن عصفور. ضرائر الشعر، تحقيق السيد إبراهيم محمد، ط ١، دار الأندلس، سنة ١٩٨٠م (ص ٣٠ ــ ٣١).

[٧١] – انظر في أحكام الفعل مع نوني التوكيد الأزهري، خالد. التصريح بمضمون التوضيح، دار الفكر (٢٠٦/٢ ــ ٢٠٩).

[٧٢] – ذكر بعض علماء العربية أن الصور المتحققة لهذا النوع من الأفعال سبعة لا خمسة؛ لأن (تكتبان للمثنى المخاطب مذكرًا ومؤنثًا، وللغائبتين). وذكر آخرون أن الأمثلة الخمسة على التفصيل عشرة؛ لأن الحروف المتصلة بها تعد أحيانًا ضمائر وأحيانًا أخرى حروفًا. انظر حاشية الصبان بهامش شرح الأشموني، ترتيب مصطفى أحمد، دار الفكر (١٠٨/١).

[٧٣] – أسرار العربية ص ٦٨ ــ ٦٩.

[٧٤] – انظر ابن مالك، شرح التسهيل، تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد وزميله، ط ١، دار هجر، سنة ١٤١٠هـ (٣١/٣).

[٧٥] – الكتاب ١ / ٢٢، وينظر الزجاج، ما ينصرف وما لا ينصرف. تحقيق د. هدى محمود قراعة، ط ٢، القاهرة: مكتبة الخانجي، سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م (ص ٣ ــ ٤).

[٧٦] – ابن القيم، بدائع الفوائد، دار الفكر (٣٦/١). وقال ابن جني في سر الصناعة ٤٩٠/٢: "وهذا التنوين هو نون في الحقيقة". وينظر أيضًا قول ابن يعيش في شرح المفصل ٢٩/٩: ((يقال: نونت الكلمة تنوينًا إذا ألحقت هذه النون. فالتنوين مصدر غلب حتى صار اسمًا لهذه النون. وفرقوا بهذا الاسم بين هذه النون والنون الأصلية.. والملحقة الجارية مجرى الأصلية.. ولذلك من إرادة الفرق لم يثبت لها صورة في الخط)).

[٧٧] - ظاهرة التنوين ص ٢٨ ــ هامش رقم ٢.

[٧٨] – السامرائي، إبراهيم. فقه اللغة المقارن، ط ٤، بيروت: دار العلم للملايين، سنة ١٩٨٧م (ص ١٣٩).

[٨٩] – انظر الأنصاري، ابن هشام. مغني اللبيب عن كتب الأعا

[٧٩] – اللـباب ١/٧٤. وقال الأنباري: ((فإن قيل: لم جعلوا التنوين علامة للصرف دون غيره؟ قيل: لأن أولى ما يزاد حروف المد واللين، وهي الألف والياء والواو، إلا أنهـم عدلـوا عن زيادتها إلى التنوين؛ لما يلزم من اعتلالها وانتقالها. ألا ترى أنهم لو جعلوا الواو علامة للصرف لانقلبت ياءً في الجر لانكسار ما قبلها. وكذلك حكم الياء والألف في الاعتلال والانتقال من حال إلى حال، وكان التنوين أولى من غيـره؛ لأنـه خفيف يضارع حروف العلة، ألا ترى أنه غنة في الخيشوم، وأنه لا معـتمد له في الحلق، فأشبه الألف إذ كان حرفا هوائيا)). أسرار العربية ص ٥٣. وانظـر أيضـا: السهيلي، أبو القاسم، نتائج الفكر في النحو، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا، دار الرياض للتوزيع والنشر (ص ٨٧ ــ ٨٨).

[٨٠] – سر الصناعة ١/٦٥.

[٨١] – يعقوب، إميل. الممنوع من الصرف بين مذاهب النحاة والواقع اللغوي، ط ١، بيروت: دار الجيل، سنة ١٤١٣هـ (ص ٢٠ ــ ٢١).

[٨٢] – انظر أسرار العربية ص ٥٥.

[٨٣] – ينظـر ابـن جنـي، أبوالفـتح عثمان. علل التثنية، تحقيق الدكتور صبح التميمي، ط ١، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، سنة ١٩٩٢م (ص ٨٠ ــ ٨٤).

[٨٤] – انظـر السـخاوي، علم الدين. سفر السعادة وسفير الإفادة، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي، ط ٢، بيروت: دار صادر، سنة ١٤٠٥هـ (١/١٨٦ ــ ١٨٨ ، ٢٤٣، ٢٥٤، ٣٥٤، ٣٨٠، ٣٩٨ ــ ٤٠٠، ٤٦٣ ــ ٤٦٤).

[٨٥] – انظر السابق ١/٢٩٢.

[٨٦] – الإشبيلي، ابن عصفور. الممتع في التصريف، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، ط ١، بيروت: دار المعرفة، سنة ١٤٠٧هـ (١/١٢٥).

[٨٧] – انظر الكتاب ٤/٣٢٠.

[٨٨] – انظر المغني في تصريف الأفعال ص ٧٢ ــ ٧٨.

[١٠٣] – الآية ٢٠ من سورة آل عمران.

[117]- ينظر سر الصناعة ٢/٥٠٣ وما بعدها.

[118] - الآية ٨٤ من سورة الواقعة.

[119] -الآية ٤ من سورة الزلزلة.

[120] -شرح المفصل ٩ / ٣٠.

[121] -قال العكبري: " وإنما جيء بالضمائر للاختصار وإزالة اللبس". اللباب ١ / ٤٧٤

[122] -ينظر ابن عقيل، بهاء الدين. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار اللغات ١ / ١١٥.

[123] - قيل في تنوين نحو جوارٍ وغواشٍ إنه عوض عن الياء المحذوفة وهو مذهب سيبويه ورجحه ابن مالك، وقيل إنه عوض عن حركة الياء وهو مذهب المبرد واختاره ابن الحاجب. ينظر: جواهر الأدب ص ١٦٢ ــ ١٦٣.

[124] -ينظر علل التثنية ص ٥٩. ويرى ابن جني أن النون في المثنى تكون عوضًا عن الحركة والتنوين في نحو "رجلان"، وعن الحركة وحدها في نحو "الرجلان" وكذا "يا رجلان"، وعن التنوين وحده في نحو "غلاما زيد". ص ٨٠ ــ ٨٤. ويختار ابن الأنباري التمثيل لما كانت النون فيه عوضًا عن التنوين بما فيه نون نحو "رحيان" وعصوان". انظر أسرار العربية ص ٦٩.

[125]- ينظر الإستراباذي، الرضي. شرح الرضي على الكافية، تحقيق الدكتور يوسف حسن عمر، منشورات جامعة بنغازي، سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ١ / ٤٨.

[126]- نتائج الفكر ص ٨٧.

[127] - أمالي السهيلي، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا، ط ١، مطبعة السعادة، سنة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م (ص ١٩ ــ ٣٩). وانظر أيضًا: نتائج الفكر ص ٨٧.

[128]- انظر شرح الأشموني ١/٢٧٤ ــ ٢٧٦.

[129] -الأشباه والنظائر ٤ / ٢٤٣.

[130]- مصطفى، إبراهيم. إحياء النحو، ط ٢،القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، سنة ١٤١٣هـ (ص ١٧٩).

[١٣١]- قارن الإحياء ص ١٨٠ ــ ١٨٣ بما في الأمالي ص ٢٦ ــ٣٩.

[١٣٢]- انظر ظاهرة التنوين ص ٩٣ ــ ٩٤.

[١٣٣]- برجشتراسر، التطور النحوي، إخراج الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ودار الرفاعي، سنة ١٤٠٢هـ (ص ١١٩ ــ ١٢٠). وانظر بهامش ص ١٢٠ تعليق المترجم.

[١٣٤]- ينظر شرح المفصل ٢٩/٩ ــ ٣٠.

[١٣٥] - ذهب بعض علماء العربية إلى أن تنوين نحو "مسلمات" تنوين صرف، وهو رأي اشتهر بنسبته إلى علي بن عيسى الربعي، واختاره الرضي. ينظر: شرح الرضي على الكافية ١ / ٤٧، والسيوطي، عبد الرحمن جلال الدين. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم، القاهرة: عالم الكتب، سنة ١٤٢١هـ ٤ / ٤٠٦.

[١٣٦]- انظر اللباب ٢٤/٢.

[١٣٧]- انظر شرح التسهيل ٢٢٩/٢، ٢٣٩.

[١٣٨]- ينظر حسن، عباس. النحو الوافي، ط ٩، القاهرة: دار المعارف ١٢٩/٣ فما بعدها.

[١٣٩]- الخوام، رياض حسن. "مع" في الدرس النحوي، ط ١، بيروت: المكتبة العصرية، سنة ١٤٢٢هـ (ص ٥١ ــ ٨٤).

[١٤٠]- الخوام، رياض حسن. "لدن ولدى" بين الثنائية والثلاثية وأحكامهما النحوية، ط ١، بيروت: المكتبة العصرية، سنة ١٤٢٢هـ (ص ٨ ــ ١٠).

[١٤١]- لدن ولدى بين الثنائية والثلاثية ص ٨، ١٠. وينظر الفيروزآبادي، القاموس المحيط (مادة: لدن).

[١٤٢]-الكتاب ٢١٠/١.

[١٤٣]- سر الصناعة ٥٤٢/٢.

[١٤٤]- الكتاب ٢١٠/١.

[١٤٥]- انظر مثلا: الكتاب ٥٢١/٣، شرح المفصل ٤٣/٩، لدن ولدى ص ٩، ١٥، ١٧، ١٨

[١٤٦] – من الآية ٦٤ من سورة الزمر.

[١٤٧] – المغني ٤٥٠.

[١٤٨] – الصاحبي ٢٤٨.

[١٤٩]– انظر في هذه المسألة مثلا: شرح الأشموني على الألفية وبهامشه حاشية الصبان ٣/٢١٧ ــ ٢١٨.

[١٥٠] – من الآية ٢٦ من سورة مريم.

[١٥١] – المرادي، الحسن بن قاسم. الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة وزميله، ط ٢، بيروت: دار الآفاق الجديدة، سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م (ص ٥٣٥).

[١٥٢] – المغني ص ٨٤.

[١٥٣] – من الآية ٣١ من سورة النمل.

[١٥٤] – المغني ص ١٠٣.

[١٥٥] –انظر الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى. معاني الحروف، تحقيق الدكتور عبد الفتاح شلبي، ط ٢، مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م (ص ١٢٦).

[١٥٦] –من الآية ٧٣ من سورة الأنفال.

[١٥٧] – انظر الجنى الداني ص ٥٢١ ــ ٥٢٢.

[١٥٨] –المعري، أبو العلاء. عبث الوليد، تعليق محمد عبد الله المدني، ط ٣، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م (ص ١١١).